الجمال الفَنِّيّ في شعر الحَارِث بن خَالِد المَخزُوميّ

إعــداد

الدكتور

عَبْد اللّه مَحْمُود أبو شِعيشَع عُمَر

أستاذ الأدب والنقد المساعد في جامعة الأزهر

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بكفر الشيخ

٢٠١٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾

صدق الله العظيم

سورة النساء الآية (١١٣)

ملخص البحث

يُعالج هذا البحث الملامح الفنية والجمالية في شعر «الحارث بن خالد المخزومي» وذلك من خلال عرض دقيق لموضوعات شعره الذي هبت علينا نسائمه من أفياء عصر زاهر فيه عاش الحارث، وذاع صيته بين أقرانه.

كما يوضح مواطن الالتقاء بين الشاعر ومعاصريه، ومن أبرزهم «عمر بن أبي ربيعة» الذي التقى معه شاعرنا في كثير من صور الغزل والعشق وتصوير المشاعر والأحاسيس.

ولقد تكفل البحث بعقد موازنات فنية بين الحارث وغيره من شعراء العربية، تميزه تارة، وتنصف غيره عليه تارة أخرى، كلما اقتضى المقام ذلك، وتطلبته عناصر الموازنة.

ولعل الغزل والوقوف على أطلال الأحبة هما أبرز ما يميز شعر الحارث ويلفت الأنظار إليه؛ لأن كليهما حاز الجانب الذكر في شعره، فأكثر فيهما وأبدع، واختلطا بعصبه ودمه وعواطفه وأحاسيسه، وشارك أقرانه بعض صوره وتفرد بالبعض الآخر وتأثرَ وأثر، وغير ذلك.

وفي البحث وصفحاته دليل وتعليل مصحوب بالشرح والتحليل على كل ذلك، كما أنه إبرز لمواطن الفن وأسرار الجمال اللفظي والتعبيري، والوقوف على فرائد المعاني وروائع التصوير والخيال عند «الحارث بن خالد المخزومي» محل الدراسة.

Research Summary

This research deals with artistic and aesthetic features in the poetry of «Al-Harith bin Khaled Al-Makhzoumi» and through a thorough presentation of the themes of his poetry, which we fed by the people of the era of Zaher lived Alharith, and reputation among his peers.

As well as the meeting between the poet and his contemporaries, notably "Omar ibn Abi Rabia", who met with our poet in many images of spinning and adoration and portraying feelings and feelings.

The research has ensured the holding of technical budgets between Al-Harith and other Arab poets, distinguishing it at times, and at other times correcting it, whenever necessary, and requested by the elements of the budget.

Perhaps spinning and standing on the ruins of loved ones are the most prominent characteristic of the poetry of Al-Harith and draws attention to it; because both of them won the side in his poetry, and more in them and creative, and mixed with his character and blood and emotions and feelings, and shared some of his peers and uniqueness of others and impact and impact, and so on.

The research and its pages are a guide and explanations accompanied by explanations and analysis on all of this. It is also a highlight of the art of art and the secrets of verbal and expressive beauty, and the master of meanings and masterpieces of photography and imagination at Al Harith bin Khalid Al Makhzoumi.

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين "محمد" أفصح الأنبياء، وإمام البلغاء، فخر ولد آدم، رفع بعامل الرفع كلمة البيان، وخفض بعامل الجر كلمة البهتان، وحاجَّ الفصحاء فأفحمهم، وناظر اللسناء فأخرسهم، تسنم البيان، وأعطى جوامع الكلم، ونبت في أرباب اللغة وتغذى بلبان الفصاحة، فجاء نسيج وحده، متفردًا بين الخلائق، اللهم صل وسلم وزد وبارك عليه، وعلى آله، وأصحابه شموس الهدى، وأقمار الزمان، ما ناحت على الأيك الحمائم، وما هبت على الكون النسائم.

وبعد ،،،

فإن الباحث في الأدب، والسابح وراء لؤلئه وأصدافه – في بحر لغته الذي في أحشائه الدر كامن – لن يعدم موضوعًا ماتعًا يبحثه، ويعيش في عالمه، ويمتع ناظريه وخاطره، وعاطفته ومشاعره، بمعانيه وفرائده، لاسيما إن كان موضوعًا متعلقًا بأحد شعراء العربية في عصرها المزهر، له خياله، وعالمه، وصوره، وأصالته الزاخرة.

ولقد هداني ربي إلى شاعر أصيل سليل بيت أصيل من بني مخزوم، عاش في عز السؤدد، وتحت سماء المجد القرشي، قد ارتضع البلاغة من أفاويقها، وشرب الفصاحة مع ألبان النوق، وأمواه الصحراء، فجاء شعره يعبر عن خلجات النفس، ومشاعر الروح، ونبضات الفؤاد، صافيًا كجو البادية، بعيد المرامي، واسع المعاني، سعة دروب الحجاز الذي فيه قطن ، وبين حواضره وبلاده عاش.

إنه الشاعر الفذ "الحارث بن خالد بن العاصي بن هشام بن المغيرة المخزومي"، المتوفى حوالي خمس وثمانين من الهجرة المباركة –صلى الله وسلم على صاحبها – ، وهو شاعر قرشي، عاش في الحجاز، وكان من أبرز شعرائه الغزليين في العصر الأموي، ولكنه لم ينل شهرة عمر بن أبي ربيعة، الذي عاصره ، وناظره، وعاش في زمانه. ولعل شهرة ابن أبي ربيعة في

عصره قد طغت على الحارث وغيره، فلم يأخذ حظه من الدرس والبحث – مع ما في شعره من رقة، ودقة، وعذوبة، وجمال، مع حسن العرض، وجودة السبك، ونصاعة التعبير، ووضوح المعنى، –شأنه في هذا شأن الكثير من شعراء الحجاز، الذين عرفوا بذلك، وتميز شعرهم بمعان رقيقة، وموضوعات تنفذ إلى سراديب النفس وحبات الفؤاد، وتهز أوتار القلب، وتحرك ساكن المشاعر، بغزل حجازي رقيق، جعل النقاد الوصف به يناهز الكمال في تمام الرقة، وبلوغ الغاية في الوصول إلى المراد من المشاعر المتدفقة والهوى والأحاسيس، فقد قالوا" غزل حجازي"، وكأنه صار مضرب المثل في التعبير عن العواطف الملتهبة، والمشاعر المحتدمة.

ولقد أوقف الحارث شعره على الغزل، وقلما خرج من أفيائه وخمائله إلى غرض آخر، مما تفرضه المواقف، وتتطلبه المقامات، بيد أن الرجل لم ينل – كما قلت – من الدراسة والرعاية ما ناله أقرانه في عصره ومصره، ولولا ما قام به الدكتور يحيي الجبوري من جمعه شعر الحارث وتحقيقه ، لظل شعر هذا الشاعر الرائع في طيات النسيان، وفي أغمار الأزمان، منشورًا كالدر في المصادر، ومفرقًا كالعطر في المراجع. لكنه لما جمع في قرن واحد، ونظم في سلك فريد وظهرت حبات عقيقه، وبرزت بدائع عقده؛ شمرت عن ساعد الجد، واستعنت بالله المعين – كي أكشف عن جماله الفني، وسره المطوي، ومنبعه الصافي، وتصويره الوافي، وخياله الرائق، ولفظه الشائق، من خلال دراسة ماتعة، تسلط الضوء على فرائد الأسرار، ومكامن الأنوار، لهذا الشعر المتألق، وشاعره المتأنق، من غير تكلف أو اعتمال، كي يكتمل العمل ويتطاول البنيان الذي بدأه الدكتور الجبوري "جامع الشعر وناظم الدر".

ومن هذا المنطلق كان القصد الذي قصدت، وبينت ، وكان الدافع من وراء هذا البحث، والسر الذي تحت هذه الدراسة.

يضاف إلى ذلك، أن الدراسة الأدبية، التي تعكس الملامح الفنية، والخصائص الجمالية للإبداع الشعري، تضاعف – من غير شك – جوانب

الإعجاب عند المتلقي، وتثري نقاط التفرد، ومظاهر التميز لدى الشاعر، ومن ثَمَّ يأتي الحكم الأدبي له أو عليه مفصلًا بالدليل، مصحوبًا بالشرح والتحليل، مزينًا وموشى بالقرائن والتعليل، وساعتها يكون الحكم الأدبي على إبداعه له موقع في النفوس، ومكان في الصدور، وقناعة في العقول والمشاعر.

وبكل هذه الأسباب وغيرها كانت أهمية هذه الدراسة، ودوافع هذا البحث، الذي آثرت أن يكون منهجه قائمًا على التحليل الأدبي، والاستقصاء الدقيق، الذي يرمي إلى إبراز ملامح الجمال اللفظي والتعبيري، والوقوف على جليل المعاني وروائع الخيال والتصوير، وصولًا إلى تحديد جوانب الإبداع الشعري عند الشاعر "محل الدراسة"، وما تفرد به عن غيره، وما التقى فيه معهم، أو زاد وتميز به عليهم، وهذا كله من خلال عرض الموضوعات الشعرية التي جال فيها الحارث بن خالد بخياله، وحلق بجناحين كبيرين في عالمها؛ لأُبرز – من خلال هذا العرض– الموضوعات التي ركن إليها الشاعر وأحبها، وأبدع فيها، وعاش معها ولها.

ويأتي الغزل ومناجاة أطلال الأحبة على رأس الموضوعات الشعرية التي لفتت أنظار الحارث بن خالد، وشغلت عاطفته، فأكثر فيهما وأبدع، واختلطا بعظمه ولحمه، ودمه وعصبه، ومشاعره وأحاسيسه، وشارك أقرانه بعض الصور، وتفرد بالبعض الآخر، وتأثر بمن سبق، وأثر فيمن لحق، إلى غير هذا مما سيأتي في فصول البحث وصفحاته.

ولقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تقع في مقدمة، وخمسة فصول، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع، وفهرس للمحتوى.

أما المقدمة: فقد افتتحتها بالحمد والثناء على رسول الله –ﷺ–، ثم عرضت شعر الحارث بن خالد، وأوضحت طبيعته، وشرحت أهم الدوافع التي دفعتني لدراسة شعره، ثم – أوضحت فيها خطة البحث، وهيكله العام.

وأما الفصل الأول فجاء تحت عنوان: "أضواء على حياة الحارث بن خالد المخزومي".

وأما الفصل الثاني فعنوانه: "وقوف الحارث بن خالد المخزومي على أطلال الأحبة".

وأما الفصل الثالث فكان عنوانه: "غزليات الحارث بن خالد المخزومي في محبوباته ومعشوقاته".

وأما الفصل الرابع: فجاء عنوانه: "الحارث بن خالد المخزومي في التحسر على ذكريات الشباب".

وأما الفصل الخامس: فوقع تحت عنوان: "الحارث بن خالد المخزومي في الأخوة والصداقة".

وأما الفصل السادس: فوقع تحت عنوان: " الحارث بن خالد المخزومي في الهجاء والعتاب".

وأما الخاتمة: فقد أوضحت فيها نتائج البحث وأهم توصياته، وما توصلت إليه الدراسة.

ثم أعددت فهرسًا للمصادر والمراجع، وفهرسًا آخر للمحتوى العام.

وبعد ،،،

فهذا بحث أدبي، أقدمه إلى محبي اللغة ، ودارسي الأدب ، لعلهم يجدون فيه بغيتهم، أو يلتمسون ضالتهم ، ولا أدعي فيه الكمال، ولا التمام، لأنه عمل بشري، يحوطه النقص ، ويعتريه الزلل، لكنني اجتهدت، وحاولت، ونشدت الرضا عنه، والإشادة به؛ ووضعته – من أجل هذا – بين يدي أساتذتي ، فإن كنت أصبت فلله الحمد والمنة، وله الشكر – سبحانه – ثم لأساتذتنا ولمن علمنا من أعلام جامعة الأزهر العريقة، وإن كانت الأخرى فـ" ﴿**مَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي**﴾[1]. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الباحث

عبد الله محمود أبو شعيشع عمر

(١) سورة يوسف الآية (٥٣) .

الفصل الأول

أضواء على حياة الحارث بن خالد المخزومي

تعريفه ونسبه:

هو الحارث بن خالد بن العاصي بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي المكي. جده العاصي بن هشام بن المغيرة قتل يوم بدر كافرًا، قتله علي بن أبي طالب، وأبو الحارث "خالد بن العاصي" ولي إمارة مكة، ولاه عمر بن الخطاب بعد أن عزل عن مكة نافع بن الحارث الخزاعي.

وأما أمُّه:

فهي فاطمة بنت أبي سعيد بن الحارث بن هشام، ولدت لخالد "الحارث بن خالد"، وأمها صخرة بنت أبي جهل "عمرو بن هشام".

وللحارث أخوان:

عكرمة وعبد الرحمن، أما عكرمة فهو محدث جليل من جلة التابعين ومن وجوه قريش، وأما عبد الرحمن فهو تابعي أيضًا، وكان عبد الرحمن شاعرًا، ونسبت إليه بعض أشعار أخيه الحارث، وفي شعر الحارث حنين ومودة إلى أخويه، ويبدو أن أحدهما فارقه فقال شعرًا في الشوق والحنين[1].

---

(١) ينظر في ترجمته وحياته وأخباره وشعره :

- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني جـ٩ صـ ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، جـ٣ صـ ٣١١ ، ٣١٢ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١ م
- زهر الآداب وثمر الألباب لأبي اسحاق القيرواني جـ ١ صـ ٢١٥ فصله وضبطه وشرحه د / زكي مبارك.
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر البغدادي جـ١ صـ ٤٣١ – إشراف إميل يعقوب – طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان – الأولى ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨ م منشورات محمد علي بيضون.
- شرح ديوان الحماسة لأبي تمام – المجلد الثاني – الجزء الثالث صـ ٨٩٩– تعليق غريد الشيخ – وضع فهارسه إبراهيم شمس الدين – طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان – الأولى ٢٠٠٣م – ١٤٢٤ هـ. =

زوجاته وأولاده:

للحارث بن خالد المخزومي زوجتان " أم عمران" تزوجها الحارث بعد أن مات عنها زوجها عبد الله بن مطيع، فولدت له فاطمة بنت الحارث ، وكان الحارث يحب زوجته هذه حبًا شديدًا وله فيها أشعار من ذلك قوله :

يا أم عمران ما زالت وما برحت بي الصبابة حتى شفني الشفق

يتوق قلبي إليكم كي يلاقيكم كما يتوق إلى منجاته الغرق(١)

وأما زوجته الثانية فهي حميدة بنت النعمان بن بشير الأنصاري، وكانت حميدة هذه شاعرة ذات لسان وعارضة وشر، وكانت تهجو أزواجها، وقد هجت الحارث وهجاها، ثم طلقها، وخلفه عليها روح بن زنباع(٢).

وللحارث بن خالد ثلاثة أولاد هم: عبد الرحمن، وعبد الملك، وفاطمة.

منزلته:

والحارث المخزومي من جوه قريش، ورجالها، وذوي الشأن والمنزلة فيهم، كان شاعرًا شريفًا من أكابر بني مخزوم بن يقظة، روى عن أم المؤمنين

- =كتاب الحماسة للبحتري جـ٢ صـ ٩٤ – تحقيق وشرح محمد نبيل طريفي – طبعة دار صادر – بيروت – الأولى ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢ م .
- الأعلام لخير الدين الزركلي جـ٢ صـ ١٥٤ – طبعة دار العلم للملايين – بيروت لبنان – الطبعة الثالثة عشرة مايو ١٩٩٨ م .
- معجم تراجم الشعراء الكبير – تأليف وإعداد د/ يحيى مراد، الجزء الأول صـ ١٩٢ – طبعة دار الحديث بالقاهرة ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م .
- معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى ٢٠٠٢م المجلد الثاني صـ٥، ٦ ، كامل سليمان الجبوري – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – الأولى ٢٠٠٣ م – ١٤٢٤ هـ .
- شعر الحارث بن خالد المخزومي د/ يحيي الجبوري صـ٦، ٧، ٨ ،٩ الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م – منشورات مكتبة الأندلس بغداد .

(١) شعر الحارث بن خالد صـ ٧٣، ٧٤.

(٢) ينظر شعره صـ ٨،٩ ، وينظر في تفصيل هذا : الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني جـ ٩ صـ ٢٢٧ ، ٢٢٨.

عائشة زوج النبي -ﷺ-. وتولى ولاية مكة في عهد يزيد بن معاوية، وعبد الملك بن مروان .

عرف الحارث بخصال حميدة منها العفة والوفاء والبر والتقى، فعلى الرغم من غزله وتشبيبه بعائشة بنت طلحة، فإن غزله كان تظرفًا وغزلًا عفيفًا(١).

وكان الحارث وفيًا لأصحابه، بارًا بهم، عارفًا لحقوقهم، وقد ذكر كل هذا في شعره على ما سيأتي من بعد ذلك. وعلى أية حال فقد كان الحارث من رجال مكة المرموقين وسراة الحجاز ذوي الشأن فيه(٢).

شعره:

الحارث بن خالد أحد شعراء قريش الغزليين المعدودين، كان يذهب مذهب عمر بن أبي ربيعة، ولا يتجاوز الغزل إلى المديح، وإذا عدوا شعراء قريش، فيعدون الحارث بن خالد شاعرًا من خمسة شعراء، عرفوا بجيد الشعر، وقد قالوا في ذلك أن العرب كانت تفضل قريشًا في كل شيء إلا الشعر، فلما نجم في قريش عمر بن أبي ربيعة، والحارث بن خالد المخزومي، والعرجي، وأبو دهبل، وعبيد الله بن قيس الرقيات، أقرت لها العرب بالشعر أيضًا، فهؤلاء خمسة شعراء، يأتي الحارث ثاني الشعراء منزلة، ويرتبط ذكره وشاعريته بعمر بن أبي ربيعة، فهو صنوه، وابن عمه، فكلاهما مخزومي، وشاعر غزل، لم يتجاوزا الغزل إلى غرض آخر إلا عَرَضًا.

وربما نسب شعر عمر إلى الحارث، وشعر الحارث إلى عمر؛ وذلك لأن ميدانهما واحد، وبلدهما واحد، وحتى المرأة التي حركت مشاعرهما واحدة، وهى "عائشة بنت طلحة"، فكلاهما ذكرها، وأحبها، وتغزل بها(٣).

---

(١) شعره صـ ١٠، ١١ وزهر الآداب، جـ١ صـ ٢١٥.

(٢) شعره صـ ١٢.

(٣) ينظر الأغاني جـ ٩ صـ ٢٢٧، وشعره صـ ٢١، ومعجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م المجلد الثاني صـ ٥، ٦.

وهذا كله سيتضح من خلال فصول البحث، وعرض شعر الحارث ودراسته.

وعلى الرغم من أن الرواة يقرنون بين الحارث بن خالد، وعمر بن أبي ربيعة، ويجعلونهما على رأس طبقة شعراء الغزل، إلاَّ أَنَّ شهرة عمر وغزله بالنساء، وترديد شعره على أفواه الناس غناءً وإنشادًا، كل ذلك غطى على الحارث، وغض من شاعريته، كما غطى على شعراء من جيله، وجعل شعره أقل سيرورة من شعر عمر(١).

عشقه وغزله:

تميز الحارث بن خالد بعشقه وإخلاصه، وتبتله في محراب من يتعشقهن، من أمثال عائشة بنت طلحة، وأم عمران، وأَثْل، وليلى بنت مرة، وأم بكر، وعثمة، وظليمة، وغيرهن.

وقد أثمر هذا العشق ثماره، وآتى أكله، فتفجرت موهبة الحارث عن غزلٍ رقيق مثل اللآلئ ، في وسامة الورد، وفي رقة النسيم " وأكثر شعره غزل عفيف رقيق، صادق العاطفة، عذب الأسلوب، وصوره طريفة، ومعانيه رائقة رائعة، ولا غرابة في ذلك؛ لأن الحارث أحد شعراء قريش المعدودين الموصوفين بالإجادة والرقة(٢)".

ولقد أحب الحارث "عائشة بنت طلحة" حبًا شديدًا عفيفًا صادقًا لا تكلف فيه ولا ابتذال ولا كذب، على خلاف عمر بن أبي ربيعة الذي كان دافعه الإعجاب، ومتابعة الحسن والصبا والجمال(٣).

والملاحظ في غزل الحارث عامة، ارتباطه ارتباطًا وثيقًا بالمواضع والديار؛ ذلك لأن الشاعر كان يرى النساء في الحج أو العمرة عند الطواف، أو أيام التشريق بمنى، فإذا ما أتم الناس مناسكهم، وأدوا الفرائض، رحل

(١) شعره صـ ٢٤ بتصرف.
(٢) ينظر: خزانة الأدب جـ١ صـ ٤٣١ وشعر الحارث صـ ٣٠.
(٣) شعره صـ ٣١.

الحجيج ، وظل الحارث يستعيد ذكرياته، ويتأمل في مواضع اللقاء، وأماكن النساء، ومن ثم جاء غزله متصلًا بذكر المواضع، وهذه المواضع عزيزة على نفسه، لأنها كريمة مقدسة من جانب، وهى موطنه وأرضه من جانب ثانٍ، وملتقى أحبته من جانب ثالث(١).

وفي فصول البحث بيان وتوضيح وبسط لهذا الجانب وغيره مما تفرضه الدراسة ويتطلبه المقام.

وصفوة القول في هذا الأمر نستطيع أن نقرر بأن الحارث شاعر غزل من طراز فريد له خصوصية وحضور ومكانة، ولقد صرف همته، ومكن إبداعه في جانب الغزل فأجاد وأبدع، وأتى بالفرائد – كما سيتضح من خلال التحليل والعرض –؛ ولذلك " جاء غزله عذبًا رقيقًا لا تمل قراءته، سلسًا ممتعًا يسمو على الابتذال، ويجانب الصنعة والتكلف، عبارته جميلة، وصياغته بارعة رائعة، تنم عن شاعرية أصيلة، وطبع سليم، ولغة عالية، وروح عذبة شفافة؛ وبذلك استطاع أن يجعل شعره إفصاحًا عن إحساساته وعواطفه، ومن هنا كان شعره بغية المغنين والمطربين والأدباء والشعراء(٢).

وفاته:

يقول الدكتور يحيي الجبوري جامعُ شعر الحارث: "ليس لدينا تاريخ أو رواية عن وفاة الحارث، والمصادر التي ترجمت له لم تعين زمن وفاته، لكن الزركلي في الأعلام ذكر أنه توفي نحو سنة ثمانين هجرية(٣)"

لكن الدلائل والأحداث التي ساقها "أبو الفرج" في أغانيه تشير إلى أن الحارث تجاوز هذه السنة بسنوات، مستندًا إلى قرائن وتواريخ ترتبط بكل هذا؛ الأمر الذي يرجح بأن الحارث بن خالد المخزومي توفى قبل عبد الملك بن

(١) شعره صـ ٣٧.

(٢) شعره صـ ٤١.

(٣) شعره صـ٢٠ والأعلام جـ٢ صـ ١٥٤، ومعجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م المجلد الثاني صـ ٥، ٦.

مروان بيسير، فإذا كانت وفاة عبد الملك بن مروان ثابتة في عام ست وثمانين هجرية، فإن وفاة الحارث تنحصر بين عامي: أربع وثمانين وخمس وثمانين هجرية[١].

رحم الله الحارث بن خالد المخزومي، وجعله في الصالحين.

(١) يراجع في ذلك الأغاني جـ٣ صـ ٣١٧.

الفصل الثاني

وقوف الحارث بن خالد المخزومي على أطلال الأحبة

من المعلوم لدى دارسي الأدب العربي أن البكاء على الأطلال سنة من سنن الشعراء، والوقوف عليها نهج سلكوه؛ ذلك لأنهم – دائمًا– متأثرون بما يطرأ عليهم من مواقف وأحداث وتقلبات في ساحات ودروب الجزيرة العربية، ما بين بعاد عن الحبيبة، وهجران لها، وأزمنة تمتد عبر كل هذا وتستطيل، ولا يبقى منها إلا نقوش رامزة، وحفائر في جدر الأطلال الباقية، وآثار "تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد"(١). على حد تعبير "طرفة بن العبد" في افتتاح معلقته.

ولكن لِمَ احتفوا بها كل هذا الاحتفاء؟ ذلك؛ " لأن بها كانت الحبيبة تقيم، وإليها كان قلب الشاعر يخفق، ونظره يمتد، وخياله يحوم.. وربما هنا كان لقاء ومناجاة ورجاء ووصل، ثم قضت حياة الانتجاع أن يُعَطِّل المنزل الذي كان آهلًا، وأن يقفر المكان الذي كان خصبًا موحيًا، وأن يعود إلى طبيعته جمادًا، بعد ما أضفت عليه الحبيبة حياة وجمالًا؛ فقد تناوبته الرياح والأمطار، فلم يبق منه إلا أطلال ورسوم.

أليس من حق هذه الأطلال أن يعزها الشاعر، وأن يقف بها، ويطوف حولها؟"(٢). والحارث بن خالد المخزومي واحد ممن وقفوا على هذه الأطلال، ووصفوا آثارها، وتأثروا بمراتع الأحبة في ماضيها، يجترون ذكريات مضت، ويتأملون حاضرًا أليمًا ، وواقعًا مريرًا.

---

(١) هذا عجز البيت، وصدره قوله: "لخولة أطلال ببرقة ثمهد" ديوان طرفة بن العبد صـ٢٥ اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي – طبعة دار المعارف– بيروت لبنان– الطبعة الثالثة : ١٤٣٣هـ–٢٠١٢م .

(٢) ينظر الغزل في العصر الجاهلي د/ أحمد الحوفي صـ٣٣٤ ، ٣٣٥، طبعة دار القلم – بيروت لبنان .

يقول في ذلك يوم بان أحبته:

أحقًـا أن جيرتنـا اسـتحبوا حـزون الأرض بالبلـد السـخاخ
إلى عقـر الأبـاطح مـن ثبـير إلى ثـــور فمـــدفع ذي مـــراخ
فتلـك ديـارهم لم يبـق منهـا سـوى طلـل المعـرس والمنـاخ[1]

وصدر الأبيات استفهام إنكاري من مواقف الأحبة الذين استحبوا النأي والبعاد والنزوح إلى حزون الأرض وصعبها وما غلظ منها، تاركين مساكن آهلةً بأهلها، منبسطة بأنسها، مفضلين عليها أماكن بعينها " عقر الأباطح وثبير وثور ومدفع وذي مراخ"، وكلها أماكن بمكة المكرمة وحواليها، ومعالم وجبال لها تاريخ ومواقف[2]؛ بيد أن الشاعر يرى – مع جلال تلك الأماكن ومنزلتها – أن تعلق النفس بمراتع الصبا ومرابع الشباب في ديار الأحبة يفوق كل خيار في نزوح الأحباب إلى غيرها من الأماكم المذكورة؛ إذ النفس دائمة التعلق والحنين إلى مواطن النشأة ومنازل الطفولة. ومن هنا يأتي وجه العجب، ويستساغ الإنكار في سؤال الحارث عما صار الأحبة إليه من بعاد عن الديار التي تهدمت، ولم يبق منه سوى طلل شاهد على أزمنة بعيدة كان القوم فيه

(١) شعر الحارث بن خالد المخزومي صـ ٥٠، ٥١.

(٢) ذكرها ياقوت الحموي في "معجم البلدان" فقال:

عقر الأباطح : رمل منبسط على وجه الأرض وهو يضاف إلى مكة. معجم البلدان جـ١/٩٥ (أبطح).

ثبير: من أعظم جبال مكة، سمي باسم رجل مات فيه. معجم البلدان جـ٢/٨٥ (ثبير).

ثور: اسم جبل بمكة فيه الغار المذكور في القرآن، الذي اختفى فيه النبي-ﷺ- معجم البلدان جـ٢/١٠٠، ١٠١ (ثور).

مدفع أكنان : موضع ذكره عمر بن أبي ربيعة في شعره، ومنه مدفع الملحاء . معجم البلدان جـ٥/٩١ (مدفع).

ذي مراخ: وادٍ قريب من المزدلفة، وقيل وادٍ باليمن. معجم البلدان جـ٥/١٢١، ١٢٢ (مرخ) . تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

يعرسون ليلًا للاستراحة، وينيخون فيه الإبل للراحة، وقد سماهم الشاعر بأسماء الأزمنة والأماكن؛ تعظيمًا لهما في نفسه "طلل المعرس والمناخ"؛ واستحضارًا لأزمنة وأوقات حبيبة إلى روحه، وأماكن لها تاريخ في خياله؛ لتنتقل الصورة من الماضي إلى الحاضر، وتستدعي مخيلته عبقًا من ذكريات الديار المهدمة، وقد زينت بحور نواعم ملأن المشهد القاحل بألوان بهيجة من الأنس والجمال، وهى صورة موشاة بأصباغ قاتمة من الحسرة على ما مضى من بهجة وحيوية، وزخم متزاحم من صنوف النعيم المنقضي دون عودة .

وقد تغنى بها في الدار حور نــواعم في المجاســد كــالأراخ

وما أجمل الصورة في البيت ، وما أعظم خلابتها وبساطتها في آن واحدٍ؛ وقد صورت الفاتنات من النساء بالحور، وهي لفظة موحية مشعة ظليلة مكثفة استمدت كثافتها وإيحاءها من معين القرآن العظيم ﴿**حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ**﴾(١)، ثم أضفى الشاعر عليهن غلالة من نعيم، وملاءة من بهاء، فجعلهن " نواعم " لتنتقل معهن من جمال إلى جمال، ومن وصف إلى آخر؛ لتصل الصورة أقصى مدراج الإبداع التعبيري في خيال الحارث المخزومي، وذلك عندما يجسد الصورة، ويحدد ملامحها، وينقلها من عالم التصور إلى عالم المشاهدة الممزوجة بكمال الجمال المشاهد عبر الطبيعة الساحرة..." نواعم في المجاسد كالأراخ "، وأعنى به جمال البقر الوحشي، وقد نظمت في سربهما ، وانسلكت في عقدها كالجواهر المكنونة سواء بسواء .

وقد كان يكفي الشاعر أن يقول في وصف فاتناته " نواعم كالأراخ" ومعناه: "جميلات فاتنات كبقر الوحش"، ولكنه آثر القيد – في المجاسد – وهي الغلالة الرقيقة التي تلى الجسد مباشرة ؛ ليضفي على الصورة حيوية ، ومزيد خصوصية وبديع إشراق؛ ويقيم العلاقة المرادة بين بقر الوحش في شكله المخطط البديع في منظر ساحر خلاب ، وبين حوريات الديار اللائي

(١) سورة الرحمن آية (٧٢).

يخطرن في غلالات رقيقات لا تخلو – عادة – من ألوان زاهية، وخطوط باهرة سابية، تسبي معها قلب الشاعر ، وتأسر أشواقه ومواجده؛ لينطلق بعدها إلى تسليمٍ حبيبٍ ، معترفًا بسلطان الحب، وهيمنة الشوق وطغيان الغرام، قائلًا في مكاشفة:

ووجدي بالأحبة يوم بانوا كوجد الصاد بالماء النقاخ

ووجدي دائم لهم وعهدي متين ما يعود إلى انفساخ(١)

ولا نجد في معجم الأشواق والوجد واللهفة والتوق وجدًا ولهفة أشد من وجد ولهفة الصادي الذي أضناه العطش، وقطع لهاته اليبس والظمأ، وأشرف على الهلاك؛ بيد أنه قد لاح له ماء زلال صاف نقاخ فانكب عليه يعل منه تارة، ويعب أخرى حتى روى وارتوى... هكذا كان وجد الحارث بأحبته يوم بانوا عنه، وظعنوا عن دياره.

وجمال الصورة أنها نقلت إلينا المعنى من المجرد إلى المحسوس، وجسدت وجد الشاعر وهيامه بأحبته في صورة يدركها الجميع، ويشعر بها كل عطشان صديان أشرف على الهلاك أو كاد يهلك، وزاد من جمالها أيضًا تناميها، واستمرار تجددها قوله يكرر وجده:

ووجدي دائم لهم وعهدي متين ما يعود إلى انفساخ

كما أن البيت فيه إشارة إلى نظرة طاهرة نلمحها عند الحارث، وبذرة من بذور "الحب العذري" الذي لا ينتظر فيه المحب جزاء من حبيبة؛ لأنه على كل حال دائم الوصل، متين العهد، قوي الوجد، لا يقبل عهد انفساخ أو انقطاع.

أسيئي بنا أو أحسني لا ملامة عليك ولا مقلية إن تقلت(٢)

---

(١) شعر الحارث صـ ٥١.

(٢) ديوان كثير عزة صـ٦٩ شرحه عدنان زكي درويش – طبعة دار صادر – بيروت ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٥م.

ويعضد ذلك ما يطرأ على الحارث من إمارات القلق، ومظاهر الاضطراب عندما يحين موعد البين، وتظهر علامات الفراق، ويزف موعد البين، وتحل ساعته، ويصطبغ وجهه بصفرة الوجل ، ويكسوه إمارات المحبين ودلالات العاشقين من مثل قوله:

زعموا بأن البين بعد غدٍ فالقلب مما أحدثوا يجف
والعين منذ أجد بينهم مثل الجمان دموعها تكف
ومقالها ودموعها سجم أقلل حنينك حين تنصرف
تشكو ونشكو ما أشتَّ بنا كل بوشك البين معترف(١)

والأبيات–كما هو واضح – تشف رقة، وتحكي موقفًا، وتضوع عبيرًا، وتصور عاشقًا أضناه الجوى، وهده الهوى، وأقده البعاد، وأشقاه السهاد، بسبب ما طرأ عليه إثر فراق الأحبة، ونأى المعشوقة ، وكان لهذه الأحداث المتلاحقة أثرها وانطباعها في نفس الشاعر ومشاعره، ومن هذا نسمع قلب الشاعر يخفق، ويجب، ويدق ويضطرب، ونرى عينه تسجم الدموع، وتذرف العبرات، ويبرق في إنساها الشوق كأنه الجمان المتحدر في انسياب وتدفق، وقد أيقنت بالفراق المحتوم.

ولقد كمل الصورة الأدبية وجملها هنا، ووشاها وزينها، مزج الحارث المخزومي دموعه بدموع الحبيبة، وشكواه بشكواها، مع إبراز دور الصورة السمعية بجانب الصورة البصرية والممثلة في مقال المحبوبة المبلل بواكف دمعها، مع صوت متحشرج، صادر عن نَفَسٍ منبهرٍ متقطع ومتلاحق معًا، لا تكاد تقوى عليه: "أقلل حنينك حين تنصرف"، وهي جملة حانية، الأمر فيها للشفقة والعطف وللرحمة والدعاء، حتى يتخفف الحبيب من لدغ الحنين، ووخز الشوق، وما أظنه يفعل، وكيف وهو يستمرئ الشوق، ويستعذب البين، ويستمتع بالحنين ككل العاشقين، مع سعادة غامرة تحيط بالحبيبة كلما لفح

(١) شعره صـ٧١،٧٠.

عاشقها هجير الشوق، أو أقضته نار الفراق، ودليل ذلك جملة قولها: "أقلل حنينك" ولم تؤثر عليها "اقطع حنينك" ولم تقل: "اصرع حنينك "مع توافق الوزن: أعني السببين الخفيفين في الكلمات الثلاث، وفي هذا لمحة وإشارة تدل على حرص المحبوبة على بقاء جذوة الحنين مشتعلة عند العاشق، وناره متقدة، مع اشفاقها عليه، وخوفها من أن يلتهمه الحنين، لوزاد وهجه، أو يقتله الشوق لو تأججت جذوته، أو يصرعه الهيام لو شُبِّبتْ شعلته، وكثيرًا ما فعل كل هذا بأصحاب الغرام والهيام:

ترى المحبين صرعى في ديارهم كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا
والله لو حلف العشاق أنهُمُ موتى من الحب أو قتلى لما حنثوا[1]

وهم بكل هذا متمتعون، يحبونه، ويستطيبون الموت في رحابه:

أنا ميت من جوى الحـ ـب فيا طيب مماتي
اندبوني يا ثقاتي واحضروا اليوم وفاتي
ثم قولوا عند قبري يا قتيل الغانيات[2]

والبيت– ختام اللوحة – يشير إلى اكتمال أجزائها ووصولها إلى النهاية؛ فمن قلب يخفق إثر جد البين، إلى عين ساجمة مثل الجمان تكف الدمع، ومن مقال يختلط بالدموع، ونشيج يمتزج بنحيب، إلى شكوى البين من كلا الحبيبين، كل يبث الآخر مواجده وآهاته وبالغ أساه، وقد جد الفراق، وأصبح البعاد قاب

(١) ديوان الحلاج أبي المغيث الحسين بن منصور بن محي البيضاوي (٢٤٤– ٣٠٩هـ) صـ٢٩، صنعه وأصلحه أبو طرف تامر بن مصطفى الشيبي، منشورات الجمل، الطبعة الأولى.

(٢) الأبيات للمؤمل بن جميل بن يحيى. تنظر في: مصارع العُشَّاق جـ٢/٤٢، تأليف الشيخ: أبي محمد بن جعفر البغدادي، تحقيق: محمد حسن محمد، أحمد رشدي شحاته، منشورات محمد علي بيضون، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م.

قوسين أو أدنى، تنطق به الألسنة، وتلهج به الأفئدة، ويعترف به الواقع الملموس.

والحارث مع كل هذه المواقف المتشاكهة، والعواطف المتشابهة يصرخ تحرقًا، ويبكي لوعة، ويتقطع حزنًا، وتذهب نفسه على الحبيب المودع حسرات. يقول:

بان الخليط فما عاجوا ولا عدلوا إذ ودعوك وحنت بالنوى الإبل

كأن فيهم غداة البين إذ رحلوا أدماء طاع لها الحوذان والنفل[1]

وفي البيتين حديث مع النفس ومناجاة للذات ؛ فالحارث يتحدث إلى نفسه مخاطبًا إياها بأن الخليط "وهو الحبيب" قد بان ومال وانعطف بعيدًا عنا، بعد ما ودعنا، وقد شط مزاره ،ونأت دياره، حتى إن الإبل التي ظعنت مع القوم حداها الشوق ، وخالطها الحنين إلى معاطنها وديارها، ومرابعها التي رعت فيها وأقامت بها، فما بال الحبيبة!

ونلمح من الصورة في البيتين جو البادية، ورائحة نباتاتها الطيبة[2]، وظبائها الغريرة بأشكالها المتميزة، إضافة إلى مراميها الواسعة التي تقطعها الإبل عبر أزمنة ممتدة، وقد اشتعلت في جوانحها أشواق وحب وحنين إلى مواطنها، وحملت على ظهورها ظعينة تغز السير في رحلة طويلة، تاركة وراءها حبيبًا هائمًا وشعورًا غائمًا.

ولا ينسى الشاعر – مع تزاحم هذه الصورة وتلبد سمائها– أن يصف قلب الموقف ولبابه: "حبيبته الظاعنة وقرينته الراحلة" غداة البين إذ رحلوا، كأنها "أدماء"، و"الأدماء" هي الظبية البيضاء خالصة البياض[3].

---

(١) شعره صـ٧٩.

(٢) الحارث بن خالد مولع بوصف نباتات الصحراء، وذكر أسماء الأماكن التي لها مواقع في قلبه. ينظر الأبيات في ذلك. شعره صـ ١١٨ ، ١١٩.

(٣) اللسان: (أدم).

وكان من الممكن أن يكتفي الشاعر بوصف محبوبته الظاعنة بالظبية البيضاء، ولكنه كي يزيد الصورة خلابة وجمالًا وحيوية وحركية وإشراقًا وحياة، أضاف إليها هذا القيد، وآثر هذا الوصف للظبية بقوله: "طاع لها الحوذان والنفل" ومعنى طاع" أي: اتسع لها الرعي، وأمكنها الحصول عليه متى شاءت، وفي هذا دلالة على أن هذه الظبية تتمتع بمرعىً وفير وعيش كريم، فهي ترعى نبات "الحوذان" المشهور بطيب طعمه وسهولة هضمه(١)، وتتقلب على "النفل" الموصوف بصفرة زهرته الموسوم بطيب رائحته(٢)، وفي كل هذه الأوصاف والقيود التي وضعها الحارث لوصف الظبية ما ينسحب – بلا شك – على بهاء محبوبته، وجمال معشوقته؛ لأن هذه الأوصاف التي زينت الصورة، ورسمت شكلاً مشرقًا للظبية هي ذاتها التي أرادها الشاعر صورة ريانة متلألئة لفتاته في الواقع.

والسر من وراء ذكر هذه القيود هو بيان ما كانت تتمتع به محبوبته المفارقة، ومعشوقته النائية من حيوية وجمال ونشاط، وفراهة قدٍ، وخصوبة جسم، ورطوبة جلد، تمامًا كما هو موجود في الظبية التي وصفها بمراتع واسعة، ومراعٍ خصيبة ونباتات ترعاها، طيبة الشكل واللون، والطعم والرائحة، "الحوذان والنفل"، جاعلاً من ظبيته تلك، صورة بديعة لمحبوبته(٣).

---

(١) قال صاحب اللسان: الحوذان نبت يرتفع قدر الذراع له زهرة حمراء في أصلها صفرة، ورقته مدورة، وهو من نبات السهل حلو طيب الطعم، والحافر يسمن عليه ينظر اللسان: مادة (حوذ) .

(٢) يقول ابن منظور: النفل: نبتة مثل القث لها نورة صفراء طيبة الريح واحدته : نفلة . ينظر اللسادة: (نفل).

(٣) ومثله في هذا ذو الرُّمة يقول في وصف محبوبته (ميَّة):

براقة الجيد واللبات واضحة كأنها ظبية أفضى بها لبب=

ويبدو لي من خلال مطالعة شعر الحارث وتأمله أن الشاعر مولع بتأمل الظباء، وكثيرًا ما يقرن أوصافها بأوصاف من يتحدث عنهن، مع الفارق في الأوصاف والاختلاف في ظلال الصورة التي تعكس نفسيته وتعادل إحساسه ، وتوحي بمراده وغايته.

ولنقرأ في ذلك حديثه عن الأطلال والرسوم التي صورها خامدة هامدة دارسة متغيرة من بعده. يقول:

أعرفت أطلال الرسوم تنكرت بعدي وبدل بعدهن دثورا
وتبدلت بعد الأنيس بأهلها عفرًا بواغم يرتعين وعورا
من كل مصبية الحديث ترى لها كفلًا كرابية الكثيب وثيرا(١)

وفيها يخاطب الحارث رفيقه وصديقه، ويسأله باستفهام إخباري، أي: أخبرني عن هذه الديار هل رأيتها وعرفتها مثلي، وقد تنكرت بعدي، وأنكرت معالمها، ولم يبق منها سوى خيال ورسوم تلوح ضعيفة، وآي ذهبت شواهدها، واندثرت علاماتها، وضاعت أماراتها:

وتبدلت بعد الأنيس بأهلها عفرًا بواغم يرتعين وعورا

وهى صورة تعكس ذكريات الديار في الماضي الأنيس، وتصور حاضر اللحظة الأليم، وقد تبدلت أنسها ومباهجها ورغدها وخصبها، إلى قفر ووعور يرتعين فيه ويسكنه عفر بواغم أي: ظباء يعلو بياضهن حمرة، والباغمة هنا: الظبية تنادي ولدها بصوت رخيم(٢).

=يقول الدكتور/ زكريا النوتي معلقًا على هذا الوصف: "براقة الجيد واللبات واضحة – أي بيضاء – كأنها ظبية رعت النهار، فلما انقضى النهار صارت ممتلئة الجلد، براقة قد صقلها الرعي".

ثور الوحش بين النابغة وذي الرمة: دكتور/ زكريا النوتي صـ٨٢، ٨٣، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م، إيتراك للنشر والتوزيع.

(١) شعر صـ٦٠.

(٢) وامرأة بغوم: أي رخيمة الصوت. اللسان (بغم).

والصورة هنا تختلف عن الصورة السابقة التي صور فيها الشاعر محبوبته بالظبية الأدماء ترتع في نبات "الحوذان والنفل" وتملأ الأرض حيوية ونشاطًا، بينما هو هنا نراه وقد صور الديار بعد أنسها بأهلها ونزوحهم عنها بالظباء البواغم تنادي صغيرها، وتبحث له عن مرعى لترتع فيه فلا تجد إلا الوعور والقفار لتكون مرتعها ومرعاها .

أرأيت كيف اختلفت الصورة، وكيف تباينت بتباين حالة الشاعر وشعوره وأحاسيسه التي تعكس المشهد، وتجعل من الشيء الواحد صورًا مختلفة المشارب والأشكال والأهداف!

غير ان الحارث بن خالد شاعر أسيف الطبع، رقيق العواطف، وكأنى به قد استوحش هذه الصورة التي ملأت جنبات نفسه خوفًا، وجعلت الديار من حوله قفرًا يبابًا، فعاد سريعًا إلى صورتها الماضية– والتي كانت الديار وقتها مراتع أنس، وملاعب لهو ومؤانسة – يجتر ذكرياتها، ويعاود ماضيها المنقضي:

من كل مصيبة الحديث ترى لها كفلًا كرابية الكثيب وثيرا

والبيت هذا توضيح لما أجمله الشاعر في كلمة "بأهلها" أي: تبدلت بعد أن كانت آنسة بأهلها المتمثلين في كل امرأة جميلة تؤسر بحديثها الجليس، وتملك بدلالها لبه، وتخطف عقله، فيحن ويصبو إلى قربها بحسن دلالها، وحديثها تارة، وتارة أخرى بمظهرها الجميل وكفلها الوثير.

وتمضي هذه الصورة من وقوف الشاعر على أطلال ديار محبوباته ورسومها، لينقلنا من ماضية الذي انقضى، وسالفه الذي ولى، إلى صورة أخرى هي أقرب لخياله، وأدنى لمعاشه، وألصق بذكرياته، فيضرب عن السابقة، ليذكر اللاحقة، بقوله: "دع ذا" أي اترك ما ذكرتُ لك من قبل، ولتذكر ما أقوله الآن:

دع ذا ولكن هل رأيت ظعائنًا قربن أجمالاً لهن بكورا

قــربن كــل مخــيس متحمــل بــزلاً تشــبه هــامهن قبــورا

يفـتن – لا يـألون – كـل مغفـل يملأنــه بحــديثهن ســرورا[1]؟

والشاعر في استخدامه هذا الأسلوب "دع ذا" إنما يمشي ويسلك سنن آبائه وأجداده من شعراء الجاهلية[2]؛ حيث كانوا يسلكون هذا النهج من الإضراب عن الكلام الأول "دع ذا " وذكرهم بعدها الكلام الآخر؛ إيماء وإشارة إلى أنه قد بدأ يشرع في المعنى الذي أراده، والقصد الذي قصد إليه، وما الكلام الأول الذي ذكره – في ظني – إلا شحذ للذهن، وجلب للأفهام، وتنشيط للقلوب والآذان، حتى إذا ما تهيأت النفوس، وصغت العقول والقلوب، وانتبه الجمع إلى السماع والإنصات، شرع في بث ما شغله من أمر، وإذاعة ما أراده من معنى، وقتما أصبح لكل مستمع قلب متدبر ﴿**أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾[3]، يقول:

دع ذا ولكن هل رأيت ظعائنًا قــربن أجمــالاً لهــن بكــورا[4]

والظعائن جمع ظعينة وهن النساء في الهوادج المرتحلات اللائي انتوين السفر، وعزمن على عدم المقام، وهن اللواتي شغلن قلب الشاعر، وحركن مشاعره، وفيهن حبيبته، ومن بينهن معشوقته، قد قربن أجمالاً مذللة

---

(١) شعره صـ٦٠، ٦١.

(٢) من أمثال امرئ القيس في قوله بعد حديث طويل :

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة ذمول إذا صام النهار وهجرا

ديوانه صـ٩٤ طبعة : دار صادر بيروت.

وقول الأعشى الكبير:

فدع ذا ولكن ما ترى رأي كاشح يرى بيننا من جهله دق منشم

ديوان الأعشى الكبير صـ١٦٦، صنعه محمد فوزي حمزة، مكتبة الآداب، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.

(٣) سورة ق الآية (٣٧).

(٤) شعره صـ٦١.

للرحلة، متحملة للعتاد والمتاع في شموخ وإباء، وتعالٍ وارتفاع، حتى خيل للشاعر أن هاماتها العالية تشبه القبور المقبوَّة في ارتفاعها وضخامتها وتعرجها وهيئتها، مع الاحتفاظ بصورة القبور الثابتة في الذهن، الجامدة في الواقع، ومشاهدة ظهور الجمال وهاماتها مهتزة ريانة متطاولة.

وما أجمل قول الحارث يحكي خلابة جمع النساء وجمال حديثهن:

يفتن لا يألون كل مغفل يملأنه بحديثهن سرور

ولقد زاد المعنى جمالاً ولطفًا هذا الاعتراض الرائع في وصف النسوة – لا يألون– الذي يدل على أن هؤلاء الغانيات دائمات الفتنة للرجال، مستمرات في استمالتهن، لا تنفك عنهن بحال؛ وذلك من فرط جمالهن، وبديع دلالهن، وبخاصة "المغفل" منهم وهو الشاعر نفسه، إذْ قد وصف نفسه بـ"المغفل" تمدحًا لذاته؛ حيث إنها صفة ترفعه درجات في موكب الغرام ومنازل العاشقين؛ لأنها دليل على أن الحب سباه، والشوق أضناه، والوجد تملكه، فأصبح قلبه به مشغولاً، غافلاً عما عداه(١)، هائمًا في سمائه، منصتًا لحديث الفاتنات الساحر، اللائي يملأنه بحديثهن سرورًا على حد تعبيره.

وكأن بشار بن برد قصد وصفهن في قوله يصف معشوقته:

وكأن رجع حديثها ** قطع الرياض كسين زَهْرا

وكأن تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا(٢)

ويعود الحارث مرة أخرى بعد هذه الصور إلى حديث عن الأطلال

---

(١) لا أجد علاقة تربط بين مدلول كلمة "المغفل" بمعنى المحب، وبين المغفل الساهي المشتغل بأمر ما عداه إلا علاقة تجمعها في قرن واحد، وهو أن المحب سمي مغفلاً؛ لأنه غفل عن غير من يحب، وشغل بحبيبه حتى استولى هواه عليه، وأصبح غافلاً عما سواه، فهو مقيد به، لا يتعداه إلى شيء آخر.

حول هذه المعاني ينظر: اللسان: (غفل) .

(٢) ديوان بشار بن برد صـ٥٢٧، ٥٢٨، شرحه ورتب قوافيه : مهدي محمد ناصر الدين، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى ١٤١٣هـ– ١٩٩٣م.

والرسوم والديار، وكأنها خواطر تدور في ذاكرته، وصور مخزونة تترسم في خياله، وسبحات حزينة في نفس تأنس بالماضي، وتجتر لوعاته، وتأخذ من مواقفه المشرقة زادًا يعينها على حاضرها الموحش، وأزمانها الذابلة، لكنَّا نلمح في كل تلك المشاهد والمواقف خيطًا رفيعًا مضيئًا يسري في خيال الشاعر؛ ليربط – في دقة وتفرد – بين كل صوره وأصباغ رسومه، التي تدور جميعها في هذا الفصل حول ديار محبوبات، وأطلال معشوقات، وأظعان راحلة يرحل معها ومن ورائها قلب الشاعر، ويطير فؤاده، ولا يملك بعد هذا البين إلا صرخات مدوية، ونداءات واسعة تتردد مع صدى الصوت المرجَّع في جنبات البلى، وهذه فجعته ولوعته:

يا دار حسرها البلى تحسيرًا	**وسفت عليها الريح بعدك بورا**
دق الترابُ نخيله فمخيم	**بعراصها ومسير تسييرا**
ياربع بِشْرَةَ إن أضرَّ بك البلى	**فلقد عهدتك آهلاً معمورا**
عقب الرذاذ خلافهم فكأنما	**بسط الشواطب بينهن حصيرا**
إن يُمس حبلك بعد طول تواصل	**خلقًا ويصبح بيتكم مهجورا**
فلقد أراني. والجديد إلى بلىً	**زمنًا بوصلك قانعًا مسرورا**
جذلاً بمالي عندكم لا أبتغي	**للنفس غيرك خلة وعشيرا**
كُنتِ المنى وأعزَّ من وطئ الحصى	**عندي وكُنتُ بذاك منكِ جديرا**(١)

ومفتتح الأبيات نداء واسع يصور –عبر مساحته المترامية، وعقيرته العالية– حجم البلوى، ويجسد مقدار الرزية التي أصابت الشاعر بعد ارتحال أحبابه، وما بقيت بعدهم إلا بقايا الدار التي ناداها نداء المتفجع على أصحابها وعليهابعد أن " حَسَّرها البلى، وسفت عليها الريح...".

ولقد صورت هاتان الجملتان أعني " حسرها وسفت" ما وقع للديار من

(١) شعر الحارث بن خالد صـ٦٢، ٦٣، ٦٤.

بـلاء، ومـا حـلَّ بهـا مـن مصـائب، فالتحسـير الإضـرار، والإسـقاط والتغييـر، ومعنـى "حسـرها، البلـى تحسـيرا" أي: خرَّبهـا، وأضـرَّ بهـا، وأذهـب معالمهـا، وأسقط بنيانها، وأخرجها من كل مظاهر الحياة والبهجة والأنس(١)، والتأكيد بالمفعول المطلق يدل على أن عناصر البلى دبت في كل جزء من جزئياتها، وعلقتْ في كل ركن من أركانها، وأنشبت أظفارها، إضافة إلى أن هذا التأكيد يجسد ويصور معًا ما أصاب الشاعر المتفجع من حزن وهم وغم؛ بسبب ما رأى من ديار أحبته التي كانت في الماضي يرفرف عليها جميعُ مظاهر الأنس والبهجة والصفاء والبهاء.

ومما ضاعف هذا المشهد، وأبرز عناصر هذه الصورة القاتمة، الشطر الثاني من البيت: "وسفت عليها الريح"؛ والذي يدل على اختفاء معالم ديار أحبته؛ إذ الريح السافيات قد ذرت التراب والغبار عليها، وحملتها في قوة إليها، حتى هجم التراب، فدفن المعالم، وأخفى المظاهر(٢).

بيد أن الحارث بن خالد قد استطاع أن يوسع خيالُهُ دائرةَ أسباب اختفاء الديار، وذهاب معالمها بجعله مفعول "الريح" هلاكًا، والذي عبر عنه بـ"البوار(٣)"؛ ليدلل بجميل تعبيره، وقوة تصويره على أن الريح سفت عليها هلاكًا وأرسلت إليها بوارًا، وهذا أدعى وأدل على إعمال يد الفناء فيها، وإدخال مظاهر البوار والهلاك إليها، وأشمل في استيعاب حجم الدمار والخراب الذي حَلَّ بها؛ فكلما زاد المبنى، زاد من ورائه المعنى، وحيثما كان التعبير دقيقًا كان المعنى المنبثق عنه أنيقًا، وسره رشيقًا .

ومع صحة وجهة ما ذهبنا إليه في التعبير عن هلاك الديار بـ "البوار"

---

(١) تراجع كل هذه المعاني في لسان العرب مادة: (حسر).

(٢) يقول ابن منظور: والسافياء: الريح تحمل ترابًا كثيرًا على وجه الأرض تهجمه على الناس. اللسان: (سفا).

(٣) البوار: الهلاك، ويقال: أصبحت منازلهم بورًا أي: لا شيء عليها، وهو المراد هنا. ينظر اللسان: (بور).

– وهو أعم – إلا أن الحارث خص بالذكر في البيت أبرز مظاهر الهلاك وأدومها، ألا وهو التراب الذي تسفيه الريح فيلتصق بما يأتي عليه ويبقى:

دق الـــتراب نخيلـــه فمخـــيم بعراصـــها ومســـير تســـييرا

وهو تقسيم رائع للتراب الذي يدق هذه الديار مرة بعد مرة، بواسطة الريح التي تحمله في سرعة بالغة، فهو ما بين تراب مخيم على نخيلها، بادٍ بعراصها، ووسط ديارها، يلتصق بها ويتراكم عليه عبر الأزمان والدهور، وما بين راحل عنها، متنقل إلى غيرها، مسير إلى سواها تسييرا، بحسب سرعة الريح، وتحملها ما تحمله من عوالق وأتربه. والبيت – في زعمي– من أدق ما صورت به الديار التي تضربها الريح بألوان من الأتربة التي تستقر عليها، أو تسير عنها، كما يقيم دليلا على أن الحارث وقف طويلا، وتأمل كثيرًا ديار أحبته، وتفرسها، وأعمل نظره الثاقب في دمنها وأحجارها وعراصها ، حتى انسال عليه هذا الفيض الوجداني الدافق، الذي يدل على تجربة شعرية صادقة، وعاطفة قوية متأصلة، وصدق فني وواقعي ملموس.

ولقد دفعته كل هذه الأدوات الفنية إلى نداء صادق، يتفجر بأودية الحسرات التي ينصدع لها الفؤاد، وتتبجس من رقتها العيون قائلاً ينادي الربع:

يا ربعَ بِشْرَةَ إن أضرَّ بك البلى فلقـــد عهـــدتك آهـــلاً معمـــورا

عَقَـبَ الـرذاذُ خلافهـم فكأنمـا بسـط الشـواطبُ بينهنَّ حصـيرا

والنداء هنا موجه لربع محبوبته "بِشْرَة"، والخطاب إليه، والبكاء عليه مما أضره وأصابه بعدها من ألوان الخراب والفناء، ونلاحظ أن الشاعر تمور في أحشائه ذكريات مختلطة بين الواقع الحسير، والماضي الجميل؛ لذا نراه يذكر لحظته، وما أصاب ديار أحبته، وما اعتراها من هلاك ودمار، ثم يعرِّج بعدها على تصوير ماضيها المعمور، وعهدها المأمول؛ ليعقب هذا التصوير مقارنة عفوية بين الصورتين المتغايرتين، تزيد من حسرته، وتضاعف من لوعته، وتقوي من محنته، وتجعله يبسط صورة ماضيها وقد سقط المطر

"الرذاذ" الخفيف بعدهم على ديارهم، فكأنما النساء في ساحاتها الواسعة حصيرًا ممهدًا.

وصورة المطر الذي يسقط على ديار الأحبة ممتدة في الشعر العربي، ما قبل الحارث وما بعد الحارث، ضاربة بطنبها في أزمنته البعيدة، وهو رمز وعنوان للخضرة والنماء، والسقيا والرحمة التي تنهلُّ مع قطراته الخفيفة المعتدلة، سَحًّا وتسكابًا، في غير ما إهلاك أو ترويع.

يقول "العباس بن الأحنف" يدعو بالمطر والسقيا لديار محبوبته "فوز":

سقي منزلاً بين العقيق وواقم إلى كل أُطم بالعراق ولوب

أجشَّ هزيم الرعد دانٍ ربابه يجود بِسُقيا شمألٍ وجنوب(١)

ويكرر الحارث ذات النداء على ربع "بشرة" مرة أخرى وكأنه "عنترة " عاد من جدثه، ونادى دار عبلة بالجواء يقول عنترة:

يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحًا دار عبلة واسلمي(٢)

ويقول الحارث:

يا ربع بُسْرة بالجناب تكلم وأبن لنا خبرًا ولا تستعجم

مالي رأيتك بعد أهلك موحشًا خلقًا كحوض الباقرِ المتهدِّم(٣)

لكنا نرى الحارث بعد هذه النداءات العالية على الديار تارة، وعلى الربع تارة أخرى، تهدأ نفسه، ويعود إلى أمره، ويعترف بحاضره الذي يقبض عليه بيده، ويراه بعينيه، قائلاً في مرارة وأسىً بالغ الحزن:

إن يمسِ حبلك بعد طول تواصل خلقًا ويصبح بيتكم مهجورا

فلقد أراني – والجديد إلى بلىً– زمنًا بوصلك قانعًا مسرورا

---

(١) ديوان العباس بن الأحنف صـ٢٣، طبعة دار صادر، بيروت/ الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ– ٢٠٠٨م.

(٢) ديوان عنترة بن شداد صـ١٥، طبعة دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٤هـ– ١٩٨٤م.

(٣) شعره صـ٩٧.

جـــذلاً بمـــاليَ عنـــدكم لا أبتغـــي للـــنفس بعـــدك خُلَّـــة وعشـــيرا[1]

وهـي صـورة حزينـة راكـدة شـاحبة يختـتم بهـا الحـارث هـذه المواقـف المتغـايرة، وقـد صـور فيهـا حبـل وصـال ديـار أحبتـه خلقًـا، وهـو كنايـة عـن تهـدمها، وذهـاب معالمهـا، وبلـى محاسـنها، وانقطـاع مزارهـا، وابتعـاد أهلهـا، وهجران بيوتها، و هذا كله داخل تحت تعبيره الاستعاري الجميل "إن يُمسِ حبلُك خَلِقًا" الذي جسد المعنى المراد في صورة حبلٍ بالٍ، متقطع متخرق، غير جديد وغير موصول، لا يرجى من ورائه قرب، ولا ينتظر – مع بلاه – إبرام عهد.

غير أن هذه الصورة التي اجترها الحارث – في الحاضر المشاهد – لديار أحبته قد خفف من رزءها، وشاحب لونها، وثقل مصابها على قلبه ومشاعره، ما استحضره عن ماضيها البعيد بصيغة "الرؤية" التي تنقل المشهد، وتعبر عن المقصود، قائلاً بعد "إن يُمس حبلُك... خلقًا...":

فلقد أراني – الجديد إلى بلى– زمنًـــا بوصـــلك قانعًـــا مســـرورا

واضعًا بعد قوله : "فلقد أراني" الجملة الاعتراضية الرائعة التي تلخص كل المشاهد، وتختصر كل الحياة في كلمتين اثنتين: "والجديد إلى بلىً"، وكأنها من الحارث رآية تسليم، وشارة اعتراف، ودليل إذعان بأنَّ كل جديد إلى بلىً، وكل حيّ إلى فناء؛ لتحصل المصالحة بين الشاعر وحاضره، وتكون بداية الهدنة التي تكفكف غلواء الحرب المصطرعة بين مشاعره المشتته وواقعه المرير.

وعلى الجملة: فإن البيت يفيض رقة، وينتشر عبيرًا، ونلمح من كلماته تسليمًا وانكسارًا، ونظرة عذرية مسفرة، يسفر معها وجه الشاعر، ويشرق مضيئًا قانعًا، مسرورًا بوصل أحبته الذي استشرفه وعاش معه من ماض بعيد.

ولقد أراني – والجديد إلى بلى– زمنًـــا بوصـــلك قانعًـــا مســـرورًا

(١) شعره صـ٦٣ .

ومما أكد هذه النظرة العذرية، ودلل على تلك الوجهة الصافية، قوله في ختام أبياته، وصلاً لما قبلها:

جـذلاً بمـالي عنـدكم لا أبتغـي للـنفس بعـدك خلـة وعشـيرا

كنتِ المنى وأعزُّ من وطئ الثرى عنـدي وكنـت بـذاك منـك جـديرا

و "جـذلاً" حـال مـن الضـمير فـي "أرانـي" ومثلهـا قبـل ذلـك "قانعًـا" "مسرورًا" وكلها تحكي حال الحارث، وتصور مكانة محبوبته من قلبه، فهو "الفرح" بماله عندها من حب وعشق، وهو "القانع" بها لا يبتغي سواها، ولا يطلب غيرها، ولا ينشد إلا هواها، ولا يرتضي للنفس إلا هي خلة، وعشيرًا يسكن إليها، ويستمتع بقربها، فهي المنى، وأعز من داس التراب، ووطئ الحصى، وهو بكل هذا الحب المتبادل جدير، يستحق وصالها وعشقها، وصافي ودادها.

ومما ساقنا وحدا بنا إلى القول بوجود بذرة الحب العذري في أبيات الحارث بن خالد، هو أن الشاعر بوصل محبوبته، ورؤية ديارها قانع مسرور، مغتبط جذل، ثم إنه يفتخر بكل هذا، ويُكْبر ماله عندها من حب ووصال، لا يرجو غيره، ولا يطلب سواه، ولا يطمح إلا في السكن إليها، الجلوس بين يديها؛ لأنها المنى وحبة القلب، وكل المراد، وغاية الفؤاد.

وجميع كل هذا يعد من علامات الهوى العذري، وخصيصة من خصائصه، ذكرها شعراؤه، وتحدثوا عنها، وفخروا بها، واستمرءوا العيش معها(١).

لكن الجدير بالذكر، والداعي للنظر أن الحارث كثير الحديث عن ديار الأحبة، قوي التعلق بها، دائم الذكر لها بأسمائها ومعالمها؛ وهذا يعكس

(١) يراجع في أمثلة ذلك أشعار : قيس بن الملوح، وقيس بن ذريح، وجميل بثينة، وكثير عزة، والعباس بن الأحنف وغيرهم، وإن كان كل هؤلاء أدخل في هذا المجال من الحارث بن خالد المخزومي، وأكثر شهرة.

لنا حبَّ الشاعر لمعشوقاته، إذْ الديار لا تقصد بذاتها؛ بقدر ما تُؤم لأنها مسكن الأحبة، ومأوى الفاتنات، وفيها ذكرياتها، ومرابعها، وملاعبها، وأنسها، ونشأتها. ولله درُّ المجنون حينما قال:

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا(١)

ومن ثَمَّ فلا عجب أن ينص الحارث على أسمائها ومعالمها نصًّا يسترعي الانتباه. يقول:

القصر فالنَّخل فالجمَّاء بينهما أشهى إلى القلب من أبواب جَيْرُون

إلى البلاط فما حازت قرائنه دورٌ نَزَحْنَ عن الفحشاء والهونِ(٢)

قد تكتم الناس أسرارا وأعلمها ولا ينالون طول الدهر مكنوني(٣)

لا يصرم الود مني بُعْدُ دارهم ولا تطاول هذا الدهر يُسليني(٤)

وكل ما ذكره في البيتين الأولين أسماء ديار ذات نخيل وتميز كانت "لسعيد بن العاص"، ثم آلت بعد وفاته إلى سيدنا "معاوية بن أبي سفيان"– ﷺ(٥)، وفي الأبيات ما يدل على أن هذه الأماكن وتلك الديار لها في نفس الحارث منزلة ومكانة، فهي – رغم تبديها– أشهى عنده من أبواب جيرون

(١) ديوان مجنون ليلى صـ١٢٧، ١٢٨، شرح عدنان زكي درويش ، طبعة دار صادر بيروت، الثالثة ٢٠٠٩م.

(٢) ينظر في تلك الأماكن معجم البلدان: لياقوت الحموي جـ١٨٤/٢ (الجماء)، وقد ذكر هذه الأبيات ونسبها إلى أبي قطيفة.

(٣) كلمة (طول) في البيت كتبت في شعر الحارث (طوال) وهي خطأ ، وصوابها كما أثبتها (طول)؛ حتى يستقيم الوزن العروضي؛ فالأبيات من بحر (البسيط) (مستفعلن فاعلن).

(٤) شعر الحارث بن خالد صـ١٢٣.

(٥) معجم البلدان، جـ١٨٤/٢، وقي إنها قصور وأماكن كانت لجعفر بن سليمان ومن والاها. ذات المرجع.

العالية الشامخة بدمشق الحاضرة، عاصمة الدولة الإسلامية، ومقر الخلافة الأموية[١].

ولا ينسى الشاعر تنزيه تلك الديار وساحاتها عن الهوان والخنا والفحشاء، فقد بعدت عن كل هذه الرذائل؛ ونأت حيث الطهر والعفاف والصفاء، لكنه مع نأيها، وشط مزارها، وبعاد أهلها، دائم الوصل، متصل الوداد، شديد الشوق لها ولساكنيها، فلا يصرم وداده بُعْدٌ، ولا يقطع حبالَه نَأْيٌ، ولا يسليه عنها تطاول عهدها، وانقطاع أهلها، حتى ولو تبدلت المعالم، وانعكست الآثار، وتهدمتْ الجدران، وأصبحت عاليها سالفها، فلن ينساها أبدًا بحال. نسمعه يقول عن ذلك:

عفت الديار فما بها أهل ... حُزَّانها[٢] ودِماثُها السَّهْلُ[٣]
إني وما نحروا غداة مِنىً ... عند الجمار تؤودها العُقْلُ[٤]
لو بُدِّلت أعلى منازلها ... سُفْلا وأصبح سُفْلها يَعْلُو
فيكاد يَعْرِفُها الخبير بها ... فيرده الإقواءُ والمَحْلُ
لعرفت مغناها بما احتملتْ ... مني الضلوع لأهلها قَبْلُ[٥]

روى أبو علي القالي في أماليه " أن ابن أبي عتيق ذُكِرَ في

(١) معجم البلدان (جبرون) جـ٢/٢٣١، قال ياقوت إن جبرون باب عند دمشق بناه سليمان بن داود –عليه السلام–.
(٢) الحزان : الموضع من الأرض كثرت حجارته وغلظت. اللسان (حزن).
(٣) الدمث: السهل من الأرض ضد الحزن. اللسان (دمث).
(٤) تؤودها العُقل: أي يتبعها الحبس والقيد. اللسان (عقل) والمقصود بهذا البيت وصف الهدي والأضاحي والبدن التي تساق في الحج إلى منى. تعقل وتقيد فيها لتذبح، ويذكر عليها اسم الله، وهو ما جاء مفصلا في سورة الحج آية رقم (٢٨، ٣٣، ٣٤، ٣٦، ٣٧).
(٥) شعره صـ٧٧، ٧٨، ومثل هذا في الوقوف على الأطلال ، ومخاطبة الربع ينظر صـ٩٤، ١٠٦ من شعره ومثله في صـ٩٧، ٩٨ من شعره .

مجلسه شعر الحارث ابن خالد وعمر بن أبي ربيعة، فزعم بعض الحاضرين أن الحارث بن خالد أشعرهما للأبيات السابقة وأشاد بها، فقال ابن أبي عتيق: بعض قولك يا ابن أخي! فلشعر ابن أبي ربيعة لوطة بالقلب، وعلق بالنفس، ودرك للحاجة ليس لشعر غيره... ثم قال للمنتصر لشعر الحارث السابق: يا هذا استر على صاحبك – يقصد الحارث في أبياته السابقة– فلقد تطير عليها – أي على ديار أحبته– حين قلب ربعها ، فعجل عاليه سافله، ما بقي إلا أن يسأل الله حجارة من سجيل، لكن ابن أبي ربيعة كان أحسن صحبة للربع من صاحبك، وأجمل مخاطبة له حين يقول(١):

سـائلاً الربـع بـالبُلَيَّ وقـولا هجْـتَ شـوقًا لَنَـا الغـداة طـويلا
أيـن حيٌّ حلُّوك إذْ أنـت محْـ ـــفوفٌ بهـم آهـلٌ أراك جمـيلا؟
قـال: سَـارُوا بـأجمع فاستقلوا وَبِرغمِـي لـو اسـتطعتُ سـبيلا
سـئمونا ومـا سـئمنا مُقَامًـا وأرادوا دماثـــةً وسُـــهولا(٢)

وهذا الخبر ينقل إلينا – في وضوح – موقف ابن أبي عتيق من ابن أبي ربيعة والحارث بن خالد، من خلال موازنة أجراها بينهما، مفضلاً عمر بن أبي ربيعة على صاحبه، ومادحًا شعره، ثم متهكمًا على شعر الحارث بقوله للمنتصر له : استر على صاحبك.

وبنظرة عجلى في شعر الشاعرين – محل الموازنة عند ابن أبي عتيق – ندرك أن جهة الموازنة منفكة بينهما؛ ومن ثَمَّ فالحكم لأحدهما على الآخر غير دقيق، وفيه نظر – مع تقديرنا لمكانة الرجل الأدبية والنقدية – نقول ذلك غير متعصبين لصاحبنا على ابن أبي ربيعة؛ فكلاهما شاعر با يُبارى، له

(١) الخبر في الأمالي لأبي علي القالي البغدادي جـ١٨/٢، ١٩ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م .

(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة صـ٣٣٣ ، طبعة دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٧هـ– ١٩٨٧م .

بصمته ولونه ومزاياه ورونقه، وله جماله في شعره محل نقد ابن أبي عتيق؛ بيد أنه لا يجوز جمعهما في قرن واحدٍ بالموازنة والنقد والتحامل؛ لأن لكل منهما رؤيته المختلفة في وقوفه على الأطلال، ومنحى في وصف الديار، ووجهة قصدها، ونظرة تغيَّاها، ومعنى أراد الوصول إليه في أبياتهما محل الموازنة .

أما الحارث بن الخالد فغاية أبياته، ومراد قصده، هو بيان مكانة الديار في قلبه، وإبراز تعلقه بها، وتشوفه لكل جزء من جزئياتها المرسومة في قلبه وعقله، وخياله المنقوشة في فؤاده وذاكرته، حتى لو عفت دياره، أو تبدلت وتغيرتْ، أو كانت أعلى منازلها سفلاً ، وأصبح سفلها يعلو، ونظر إليها بعد كل هذا التغيير الخبيرُ بها، الحصيفُ المحيطُ بكل شيء فيها، وأوشك أن يتعرف إليها، ويُدل عليها، وينطق بذكرياتها، ويحدث عن أخبارها، غير أن إقواءها، وتحويل حالها، وتبديل محلها، وتغيير شكلها، وشدة جدبها، يرد إليه بصره خاسئًا وهو حسير؛ وذلك لأن دمارها كبير، وتحولها يخدع الخبير، ويعمي على المدقق البصير.

لكن الحارث بن خالد يعرف – مع كل هذا – مغناها ويُدل – برغم ذلك – على منازلها ومواضعها التي أقام فيها أهلوها، بما احتملت منه الضلوع لأهلها قبلُ.

لعرفت مغناها بما احتملتْ مني الضلوع لأهلها قبلُ

والبيت هذا جواب "لو" السابقة في قوله: "لو بدلتْ أعلى منازلها..."، والباء في "بما" سببية، أي: بسبب و"ما" بعدها اسم موصول بمعنى "الذي" وعائد صلته المنصوب محذوف من جملة الصلة قياسًا، وهو الهاء المقدرة في "احتملت" أي: "احتملته" والمعنى: لعرفت مغناها، واهتديت إلى رسومها بسبب الذي احتملته مني الضلوع من أشواق وحب لها ولأهلها من قديم الزمن، حتى لو بدلت أعلاها أسفلها، وأسفلها أعلاها؛ لأنها منقوشة في جوانحي، مرسومة في خواطري، محمولة في ضلوعي وطيات وجداني فكيف أنساها؟!!

ولعل هذا التوجيه والتحليل الذي ذكرتُ هو الذي سوغ للحارث ذكر المنازل والديار بهذه الصورة، وافتراض كون أعلاها أسفلها وأسفلها أعلاها بذكر " لو"؛ ليدلل بهذه المبالغة " المفترضة" على أنه يعرف ديار أحبته على كل حال، وعلى أية وجهة كانت، حتى ولو أصبحت على النحو الذي ساقه من التبديل والتحويل والتنكير(١).

لكن ابن أبي عتيق عَدَّ ذلك من التطير بها، والشؤم عليها، وليس في سياق الأبيات ما يدل على هذا، وكيف يتطير الحارث بها وهو الذي حملها وأهلها في ضلوعه، واهتدى إليها بأحاسيسه؟!

وليس من تفسير لوجهة ابن أبي عتيق، غير أن الرجل أبى إلا أن يحطب في حبل فتى قريش ذي الشهرة والمكانة والمنزلة، ويضيف إلى ابن أبي ربيعة درجة، ولوحة تقديرية تضم إلى لوحاته الكثيرة، ساخرًا في الوقت ذاته من المخزومي "الحارث بن خالد" ، قائلاً لصاحبه المنتصر له: "استر على صاحبك، فقد تطير عليها، حين قلب ربعها فجعل عاليه سافله، وما بقي إلا أن يسأل الله حجارة من سجيل"(٢)، وهو مما أعُده إجحافًا على الحارث وبخسًا لمنزلته، والتقول عليه بما لم يقصده أو يقوله.

وأما عمر بن أبي ربيعة، فلا يختلف على شعره ناقد، من حيث لوطته بالقلب، وعلوقه بالنفس، ودركه للحاجة، كما يقول ابن أبي عتيق، وهذا يلمسه كل من قرأ شعره، وتصفح ديوانه. والسر من وراء ذلك: هو أن عمر دائم الحديث عن حاجات القلب، ومواجد الفؤاد، وأشواق النفس، حتى في مخاطبة

---

(١) وهذه الأمور كلها من التبديل والتعمية والتنكير جعلها سليمان النبي –عليه السلام– وسيلة من وسائل الامتحان والاختبار لذكاء "بلقيس"، ولمعرفة مدى تمكن معالم عرشها في قلبها، وجزئياته بفؤادها. قال تعالى :﴿**قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ**﴾ سورة النمل الآية (٤١)، فلا عجب أن يستعملها الحارث بن خالد أو قريبًا منها لذات الغرض المذكور.

(٢) الأمالي جـ١٨/٢ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦ .

الربع في أبياته محل موازنة ابن أبي عتيق، فقد وقف عليه، وطلب – في حواره – من صديقه أن يسألاه عن أشواقه التي هيجها، وعن ساكنيه الذين نزلوا به، وقطنوا فيه، وأصبح الربع بهم آهلاً مسرورًا، مغتبطًا جميلاً، يَسُرُّ جماله عين الشاعر، وكلَّ ناظر إليه:

سائلا الربع بالبُلَيَّ وقولا هجتَ شوقًا لنا الغداة طويلاً

أين حيٌّ حلوك إذ أنت محـ ـفوف بهم آهلاً أراك جميلا؟

لكن الجواب من الربع كان حزينًا قاتمًا، والرد منه كان شجيًا غائمًا، يملأ من يسمعه لوعة، ويذرف من يبصره دمعة:

قال ساروا بأجمع فاستقلوا وبرغمي لو استطعت سبيلا

سئمونا وما سئمنا مقاما وأرادوا دماثة وسهولا

وبربى، لو كان هذا الجواب من حيٍّ لأشفقنا عليه رقة، وعذوبة، وشجىً وصبابة، فما بالكم إن كان من أحجار ورمال، ودمن وأطلال، يستنطقها "عمر" المتوقد شعرًا بهذا الجمال التعبيري الرائع، وكأني بالربع يتفطر أسىً، ويتقطع حزنًا، ويذوب شوقًا على أحبابه وساكنيه من قبل.

ولننظر هذا النغم الساحر، والمد المتوالي المعبر، الذي يُخرج زفرات الأسى والحزن لدى الربع: "قال – ساروا – فأمعنوا – فاستقلوا..."، ولنتأمل قول الربع ونطقه، ولنتأمل ما بعده من السير والإمعان فيه، حتى اختفوا عن عينه مُبتعدين، ثم هذا التعبير الراقي "فاستقلوا " الذي يدل على النسيان، وعدم السؤل عنه، وما أجمل وما أرق الشطر الثاني الذي حول الجماد عاشقًا، والربع نابضًا متعلقًا، فقد سار عنه أهله من بني الإنس، وبعدوا واستقلوا، وسئموا مقامه، لكن الربع العاشق، والطلل الوامق، ما سئم مقامهم فيه، فلو يستطيع سبيلاً إلى الوصول إليهم، والحلول بين يديهم لفعل؛ فلقد بقي في مكانه – بكره منه – ، وبكره منه أيضًا نزح عنه أحبابه وبعد عنه أصحابه: " وبرغمي لو استطعت سبيلا" .

ولم يكتف خيال " عمر " المحلق بهذا الإحساس العالي لربعه الناطق بتلك الشكاية، حتى أظهره نادبًا على أهله، متفجعًا على بعادهم، مظهرًا قسوة قلوبهم، وملل نفوسهم، وسآمة مقامهم فيه – وما سئم منهم – واستبدالهم به سهولاً سهلة، وأرضًا دمثة :

سئمونا وما سئمنا مقامًا وأرادوا دماثة وسهولا

وبهذه اللغة الحوارية العالية التي تميز بها شعر "عمر"، والحديث الهادئ الذي أجراه على لسان الربع، استطاع أن يعبر عن مراده، وهو إظهار ما أضمره الشاعر من تحرق على نزوح الأحباب، جاعلاً من الربع صورة ناطقة عن مواجده وعواطفه وأشواقه وأحزانه معًا، مرتلاً كل هذا على نغمات "بحر الخفيف"، وتفعيلاته المنبسطة الشجية الهادئة: "فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن"؛ لتتناسب مع عواطفه الرقيقة وحواره السحري الهادي، الذي أخذ بمجامع القلوب، والتصق بحبات الأفئدة[1]، وهذا دأب ابن أبي ربيعة الذي"ملأ الدنيا وشغل الناس كالمتنبي"، واستحق من ابن أبي عتيق الإشادة بإبداعه، مخاطبًا صديق الحارث بن خالد بقوله : "وأما ابن أبي ربيعة فكان أحسن صحبة للربع من صاحبك، وأجمل مخاطبة ، وَذَكَرَ الأبيات التي معنا[2].

وصفوة القول: أن كلا الشاعرين أصاب وجهته أعني: "عمر والحارث" وعبر عن مقصوده، وكان كل منهما حَرِيًّا بالإكبار والإعجاب، غير أني أتحفظ على وضع أبياتهما المذكورة تحت مجهر الموازنة بينهما؛ لاختلاف منطلق كل منهما على النحو الذي بينتُ وفصلتُ.

---

(١) مناسبة الوزن للموضوع والغرض الشعري إشكالية تحدث فيها كثير من الدارسين ولم يصلوا فيها إلى كلام قاطع – غير أن الواقع ناطق بأن الشاعر يستطيع أن ينظم على الوزن الواحد مختلف الموضوعات، أو ينظم الموضوع الواحد على أوزان مختلفة. ينظر في ذلك: المدارس العروضية في الشعر العربي – عبد الرؤوف بابكر السيد صـ٤٧٦، ٤٧٧، الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ– ١٩٨٥م، الجماهيرية الليبية – طرابلس.

(٢) الأمالي جـ١٨/٢.

ومن خلال العرض الذي عرضنا من وقوف الحارث بن خالد على الأطلال، ومخاطبة الرسوم والديار، نخلص إلى أن الشاعر وفق في مخاطبتها، والوقوف عليها ومناجاتها، ومزجَ ذلك كله بالحديث عن عواطفه وحبه وشوقه إلى ساكنيها من أحبته ومعشوقاته اللائي ذرف عليهن الدَّمع، وسكب العبرات حزنًا على فراقهن وبعادهن، وهو بعد كل هذا يرفع عقيرته بالنداء العالي على الربع الخالي "يا ربع بُسْرَة"، مشبها في ذلك شعراء الحب العذري، في قناعته بمحبوبته، وفرحته وسروره بوصلها وقربها، غير راض بغيرها خلة وعشيرا، وقد أوضحنا كل هذا في صلب الدراسة فيما مضى من صفحات هذا الفصل.

الفصل الثالث

غزليات الحارث بن خالد المخزومي في محبوباته ومعشوقاته

إن المـرأة هـي ملهمـة الشـعراء، ووقـود قـرائحهم، وملهبـة أحاسيسـهم ومشاعرهم، منذ أن حرك الله ألسنتهم بالقريض، وأجرى عليها فنون القول فيها، ما استطاعوا به أن يشنفوا آذان كل مستمع، ويشدهوا كل متذوق، ويشدهوا كل ناقد متأمل، فالحديث عنها ذو شجون وأفنان، والتغزل بها يوقظ المشاعر والوجدان، والأخذ في وصفها يحرك الساكن، ويبعث الكامن، ورسم صورها الشعرية بألوان وأصباغ وحركة وهيئة يضع شاعرها في أَلقٍ ومنزلة عالية، بل وتجعله فنانًا ينفث في أوصافها من سحره، وناره ونوره، ومهجه وأحاسيسه، فإذا صورته نابضة متحركة، تعكس نفسه نحوها، وتحدد موقعه منها عاشقًا وأنيسًا وخلاً وحبيبًا.

والحارث بن خالد واحد من هؤلاء الذين تقلب في أصلابهم، فأورثوه ما استكن في طباعهم وخيمهم نحو هذا المخلوق الرقيق "المرأة"؛ فنسج على منوالهم وزاد، وردد في أوديتهم وازداد، وشدا مغردًا في محرابها بسجيته الشعرية، وملكته البيانية، وموهبته التي تفيض بعذب القريض، كلما سبته حسناء، أو أسرته عذراء غانية، أو رمته بعينيْ جؤذر رامية، ولا غرو، فشاعرنا تسبيه نظرة، وتأسره كلمة، وتأخذ بلبه التفاتة، وتضنيه ألحاظ فاترة من حبيبة راحلة؛ ومن ثَمَّ فقلبه موزع بين العاشقات، وفؤاده مشتت بين الغانيات، وأحاسيسه نَهْبٌ لكل فتاة أجال الطرف في ملامحها؛ فحركت بمفاتنها أوتار خواطره، وأزكت حرارة مشاعره؛ فعزف على مذموره أعذب الألحان – وهن كثيرات كالثمار اليانعات–[1] يتود إليهن شاعرنا تارة، وتارة أخرى يعاتبهن،

(١) منهن: "عائشة بنت طلحة " وكان يُكَنِّي عنها أحيانًا بجاريتها بُشْرة أو بُسْرة، ومنهن "أم بكر" و"سكينة بنت الحسين" و"ليلى بنت مرة" و"أم عمران" و"أثل" و"ظليم" و"حبابة" جارية يزيد بن عبد الملك، ومنهن: "عثمة" و"ضمرة" وكل هؤلاء ذكرهم في شعره .

وثالثة يبث عذابات الشوق لهن، وكل ذلك يمزجه الحارث – في براعة وطبع – بباقات الغزل، ويذيبه بألوان من الوصف الرقيق الذي يستدر عطفهن عليه، ويستجلب توددهن له، أسفًا على بعاده، ورغبة في قربه؛ ومن ثَمَّ فلكل واحدة عنده منهن قصة، ولكل معشوقة صورة وحكاية تخصها دون غيرها، من هؤلاء المعشوقات:

المعشوقة الأولى: عائشة بنت طلحة: يقول يخاطبها ويتودد إليها:

ما ضركم لو قلتم سدداً إن المنية عاجل غدها
ولها علينا نعمة سلفتْ لسنا على الأيام نجحدها
لو تمَّمت أسباب نعمتها تمت بذلك عندنا يدها
إنِّي وإياها كمفتتن بالنار تحرقه ويعبدها[1]

والأبيات تفيض سلاسة وعذوبة، وتنساب رقة ووداعة، ويفوح من أردانها عبير الود، بغية التقرب إلى فاتنتة "عائشة بنت طلحة" التي سبتْ لبه، وأذهبت عقله، فبدا مُتيمًا عاشقًا، يرى قربها منه نعمة لا يجحدها طوال الدهر؛ ففي قرب الحبيبين تكمن السعادة، ويزدهر الوئام، وفي دوام هذا القرب تكون المحبوبة قد تممت أسباب نعمتها لدى الشاعر العاشق – وقد تامت فؤاده –، بل وتصبح صاحبة أيادٍ سابغةٍ عند الحارث؛ لأنها مصدر إنعام باله بالقرب منه، وفي بعادها تكدير لعيشته، وتمزيق لنفسيته.

والبيت الأخير – ختام الأبيات – أجملها، وأدلها على منزلة "عائشة" عند "الحارث"، وفيه إشارة إلى مدى التفاني المبذول من الشاعر لصاحبة الدلال والجمال، فحاله وحالها كالمفتون بالنار، المولع بها، تحرقه بلهبها، وتؤلمه بوهجها، ولكنه مع ذلك يعبدها إكبارًا، ويسجد لها إعظامًا، ويعكف عليها تبتلاً وتحنثًا، اعتقادًا واعتناقًا.

والبيت جديد وطريف وهو –في زعمي – من فرائد الحارث وأوابده التي

(١) شعره صـ٥٧، ٥٨.

قلما يعثر على مثلها شاعر، وغايته فيه هو التعبير والتدليل على مكانة "عائشة" في قلبه، ومنزلتها في نفسه، برغم صدها وبعادها، وظعنها وعدم إقامتها بالقرب منه، وقد شبه كل هذا بتحريق النار لمن يقترب منها، بيد أنه مفتون بها، لا يستطيع بعادًا عنها، وهو – مع هذه اللهفة– ينسى ألمه، ويدفن لوعته، ولا يبقى معه إلا الحب والقرب، والفتنة الدائمة بها، والتي عبر عنها بعبادة أصحاب النار نارهم وعكوفهم عليها.

"والحارث بن خالد" على مثل هذا الحب باق، وبهذا التودد والشوق سعيد – مع تواكد البين عليه– وتزيد سعادته وهناءته إذا ما سرى طيفها إليه منامًا، وقد يئس من قربها ورؤيتها عيانًا، لكن زيارة الطيف قربت البعيد، وأدنتْ النائي . يقول يذكر ذلك:

لِبُشْرَةَ[1] أسرى الطيف والخبت دونها وما بيننا من حزن أرض وبيدها
وقرتْ بها عيني وقد كنتُ قبلها كثيرًا بكائي مشفقًا من صدودها
وبشرةُ خودٌ مثل تمثال بيعة تظل النصارى حولها يوم عيدها[2]

والطيف بهذا المفهوم وسيلة إلى زيارة الحبيب، وسبيل إلى قربه، مع اتساع المسافات بينهما من طرق وعرة، وصحراء مترامية.

ولقد أولى جُلُّ الشعراء الطيف اهتمامًا، وجعلوه معادلاً للحبيبة، بل ووضعوه موضعها، إذْ هو في الأصل صورتها، التي تتصور في نفس الحبيب، وتترسم في مخيلته، ولله دَرُّ من قال:

هذا الحبيب فمرحبًا بخياله أنَّى اهتدى والليل في سربالة؟!

---

(١) بشرة : أمة كانت لعائشة بنت طلحة، وكان الحارث يكنى عن ذكر عائشة بها، وله فيها أشعار كثيرة، يذكرها مرة بالشين، ومرة بالسين، مع ضم الباء وكسرها . ينظر: شعره صـ٥٩ هامش (١)، والخبت: المكان المتسع، وقيل: صحراء بين مكة والمدينة، شعره صـ٥٩ هامش (١) واللسان: (خبت) .

(٢) شعره صـ٥٩ .

بـل كيـف زار ودونـه مجهولـة مـن سبسـبٍ قفـرٍ تمـور بآلـه؟!
سارٍ تجاوز من شقائق عالج بُعْـدَ المـدى مـن سـهله وجبالـهِ
حـتى تقنصـه الكـرى لمتـيم لـولا الكـرى لشـفاه مـن بلبالـه[1]

وعلـى نهـج الشـعراء فـي ذكـر الطيـف سـار الحـارث، وذكـر أنـه يقطـع المسافات وصولاً إلى المحبوب، بيد أن الشاعر يرعى اهتمامنا بذكر فرائده، وذلك بجعله "عائشة" – هذي الخود الرداح، العبهرة الحسنة – كتمثال "بيعة" أي : كمعبد النصارى يعكفون عليه، ويطوفون حوله:

وبشـرة خـود مثل تمثال بيعة تظـل النصـارى حولهـا يـوم عيـدها

وذلك بعد أن جعلها معه في الأبيات السابقة كمفتتن بالنار، تحرقه ويعبدها، وهذا أيضًا مما يكشف لنا مدى تعلق الحارث وشغفه "بعائشة" التي أُعطيتْ الحسن كله، والبهاء جميعه، –إضافة إلى عقل راشد، ورأي صائب– وقد فتنت قلب كثير من القادة والأمراء والشعراء، وتحدثت عن ذلك كتب الأدب ومجامع الأخبار[2].

من هؤلاء المفتونين بها: "الأمير مصعب بن الزبير" الذي تزوج بها، "وكانت عائشة وسيمة لا تستر وجهها، فعاتبها مصعب في ذلك فقالت: إن الله وسمني بميسم الجمال، فأحببت أن يراه الناس، ويعرفون فضلي عليهم، فما

---

(١) الأبيات للبحتري : ديوانه المجلد الثالث صـ١٧٨٨، عنى بتحقيقه وشرحه: حسن كامل الصيرفي، الطبعة الثانية، دار المعارف ١٩٧٣م، وقد ذكرها الشريف المرتضى في كتابه الماتع: طيف الخيال صـ٧٨، بتحقيق : حسن كامل الصيرفي، وتقديم د/ حسن البنا عز الدين، سلسلة الذخائر ١٧٥، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٨م .

(٢) ينظر في هذا: تحفة العروس ونزهة النفوس لأبي القاسم التجاني صـ٦٤، ٢١٨، ٢١٩، وينظر الأغاني جـ ١١/١٧٦، ١٧٧ في ذكر أخبار عائشة بنت طلحة، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م .
وينظر: طبائع النساء للفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي صـ١٨٢، تحقيق وتعليق: محمد إبراهيم سليم، مكتبة القرآن، طبعة ١٩٨٥م.

كنت لأستره، ولو علمت فِيَّ وصمة أستتر لها لاستترتُ"[١]، ولقد رحل مصعب بها إلى العراق، فتبعه الحارث بن خالد، بعين دامعة، وقلب حزين، وعاطفة متقدة. قائلاً :

ظعــن الأمــير بأحســن الخَلْــق وغــدا بلبــك مطلــع الشَّــرْقِ
مــرتْ علــى قَــرَنٍ يُقادبهــا تعــدو أمــام بــراذنٍ زُرْقِ
في البيت ذي الحسب الرفيع ومن أهــل التقــى والــبر والصِّــدْقِ
فظللــتُ كــالمقهور مهجتــه هــذا الجنــون ولــيس بالعشــقِ[٢]

وفي الأبيات وصف للظعينة التي رحلتْ في موكب الأمير المهيب، كأحسن ما تكون من النساء، وقد خلعت قلبًا من ورائها هائمًا، ونفسًا شاردة، ورجلاً مقهورًا بسلطان الحب، مخبولاً بجنون الهيام الذي ما استطاع إلى الخلاص منه سبيلا، وما بقي في منزع صبره سهم، إلا أن يصدع بالحب، ويتغنى بالمحبوبة، وتذهب نفسه عليها حسرات، وكيف لا تذهب؟ وهي في الحسن والبهاء "كما وصفها" نعمان المخنث، عندما قيل له: كيف رأيت عائشة بنت طلحة، قال: أحسن البشر، قيل له: صفها، قال: تناصف وجهها في القسامة، وتجزأ معتدلاً في الوسامة، إن تكلمتْ تغنَّتْ، وإن مشت تثنتْ[٣]"، وهي في النضرة والضياء كما قال عنها الحارث بعد الأبيات السابقة:

أُترجَّــة عبــق العبــير بهــا عبــق الــدِّهان بجانــب الحُــقِّ

---

(١) ينظر الأغاني جـ١١/١٧٦ في أخبار عائشة بنت طلحة ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م.

(٢) شعره صـ٧٥، ٧٦.

(٣) تحفة العروس ونزهة النفوس صـ١٧٦، وقوله: تناصف وجهها في القسامة أي : أخذ كل موضع منه حظه من الحسن، لم ينفرد من الحسن موضع دون موضع، والقسامة: الحسن، وقوله: وتجزأ معتدلاً في الوسامة أي: أن الوسامة عمت جميع أجزائه بالتسوية. تحفة العروس صـ١٧٦.

وتنـــوء تثقلهـــا عجيزتهـــا نهـــض الضـــعيف ينـــوء بالوســـقِ
مـا صـبحت أحـدًا برؤيتهـا إلا غـــدا بكواكـــب الطلـــقِ[1]

ويبدو لـي أن الجانـب الحسـيّ هنـا قد طغـى علـى الحـارث فـي وصـف عائشـة، أو ربمـا قلنـا: بـأن شـدة الموقـف، وهـول المفاجـأة، فـي ظعن "عائشـة"، وارتحالهـا مـع زوجهـا الأميـر، كـان مـن وراء مكاشـفة الشـاعر لنـا بأوصـاف محبوبته الحسية، وكأنه بذلك يبرر أسباب عشقه وأسرار هيامه، في حالة من ا لـذهول والتلقائيـة، والدهشـة التـي تُصـيب كـل مـن باغتـه أمـرٌ ذو بـال، فبـاح بمكنون صدره، دون أن يتكلف القول أو يفكر في العاقبة.

ولا غرو، "فلربما كانت الأوصاف الحسية من أسباب العشق المطلق، حتى إن أبطال الحب العذري لم يستطيعوا أن يتحللوا من الإعجاب بالجمال الجسدي، بل أعجبوا بـه، وشـادوا بحسـنه، فهذا "قيس بـن ذريـح" يصـف جسـد "لبنى" بقوله:

إذا مـا مَشَـتْ شـبرا مـن الأرض أرجفـتْ مـن البهـر حـتى مـا تزيـد علـى شـبر
لهـــا كفـــل يـــرتج منهـــا إذا مشـــتْ ومتن كغصن البان مضطمر الخصر[2]

ولقد وصـف "الحـارث" "عائشـة" بالأترجـة، وهـي نبـات ذو شـكل كـروي بديعة الوصف، مُذَهَّبة اللون، في محياها نضارة وحيوية، وإشراقة، وهي طيبة الرائحـة، وبهـا توصـف المـرأة النضـرة الوضـيئة زكيـة الأردان. قـال علقمـة بـن عبدة في وصف النساء:

يحملن أترجة نضخُ العبير بها كـأن تطيابهـا في الأنـف مشـموم[3]

(١) شعره صـ٧٦ .
(٢) ينظر: الغزل في العصر الجاهلي د/ أحمد الحوفي صـ١٥٨، ١٥٩، طبعة دار القلم، بيروت، لبنـان، وينظـر: قيس ولبنـى شـعر ودراسـة، صـ٩٢، جمـع وتحقيق د/ حسين نصار، دار مصر للطباعة.
(٣) لسان العرب، مادة (ترج) وقد ساق البيت مثالاً على ذلك.

كما أن "الأترجة" ثمر يميد بها غصنها، ويعلوها الندى، وتعرف معاني الحب والحياة، وصفها الشعراء، وتفننوا في الحديث عنها، من أمثال: الأمير تميم بن المعز، وابن وكيع التنيسي، وغيرهما كثير(١).

ووصف الحارث عائشة بها يلقي بظلال الجمال والوضاءة والبهاء عليها، كما يعطي دليلاً بأن هذه المرأة فأرة مسك، ووعاء عطر، يعبق بها العبير، فهي أصل له أينما حَلَّتْ، وإذا مرت تضوع العبير منها، وتَعَبَّق المكانُ من نشرها الزكيّ ورائحتها الفواحة، وكأنها هي من قصدها عمر بن أبي ربيعة بقوله:

خـودٌ يفـوحُ المسـكُ مـن أردانهـا والعنـبر(٢)

وما زال "الحارث" يلح على أوصاف "عائشة" الحسية إلحاح "الأعشى" ميمون بن قيس على أوصاف محبوبته "قتيلة" . يقول الحارث:

وتنـوء تثقلهـا عجيزتهـا نهـض الضـعيف ينـوء بالوسـقِ
مـا صـبحت أحـدًا برؤيتهـا إلا غـدا بكواكـب الطلـقِ(٣)

ويقول الأعشى:

ينـوء بهـا بـوص إذا مـا تفضـلت تَوَعَّـبَ عـرض الشَّـرعَبِيّ المُغيَّـلِ
روادفـه تَثْـنِي الـرداءَ تَسـاندتْ إلى مثـل دعـص الرَّمْلَـةِ المُتهيِّـل
نيافٌ كغصن البان ترتج إن مشتْ دَبِيبَ قطا البطحاءِ في كلِ منهل(٤)

---

(١) ينظر: شعر الطبيعة في الأدب المصري في القرن الرابع الهجري: عوض على الغباري صـ٥٥، ٥٨، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م.

(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة صـ١٩٧، دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م .

(٣) شعر الحارث صـ٧٥، ٧٦.

(٤) ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس صـ١٢١، ١٢٢، صنعه: محمد فوزي حمزة، طبعة مكتبة الآداب، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م، والبوص: الردف والعجيزة، والشرعبي من أحرار الثياب، وتتوعبه أي تملؤه، والمغيل: المنقوش، وتفضلت: أي لبست الخفيف منه الرقيق، والدعص: الكومة من الرمل، والمتهيل: أي الذي يتهايل=

وبموازنة خاطفة بين تصوير الشاعرين يتجلى لنا براعة "الأعشى"، ورسوخ قدمه في هذا الميدان، وعلو كعبه في استجلاء مكامن الحسن عند محبوبته، بكل دقة واقتدار حتى بدت بتقاسيمها ودقائقها بارزة في أعين الناظرين في روعة وبيان، يشد هنا عرضه الدقيق، وعينه اللاقطة لخفايا جمالها، وارتفاع عجيزتها التي تنوء بها، وتملأ ثوبها المنقوش المغيَّل، الذي ينثنى عليها، ويتكسر بين طياتها كدعص الرملة المتهيّل، فإذا ما مشت، ترتج رطوبةً، وترعدُ أنوثةً، في تؤدةٍ وتدلل، كما تدب قطا البطحاء إلى موارد الماء، وهذا من أبلغ الوصف، وأجمله، وأدقه، وهو يدخل تحت قولهم: "أبلغ الوصف ما قلب السمع بصرًا"(١).

وأما عن صورة "الحارث" فعائشة أيضًا تنوء، وتثقلها عجيزتها – في محاولة من الدلال والتكسير، إذا ما أرادت النهوض– إلا أنه قد بالغ في تصوير ذلك النهوض الذي صوره بنهوض الضعيف، يصحبه جهد ومشقة وتعب: كما ينهض الضعيف الذي يجهده حَمْلُ الوسق، وهو حِمْلُ البعير، على حد تعبيره .

ولا شك أن هذه الصورة بهذا المعنى تنحرف بالذهن إلى مدلول آخر وإيحاء غير الذي قصد إليه "الحارث" في تصوير دل "عائشة" وغنجها، في رغبة منها لعرض جمالها حينما تنهض، لتنوء بدلال مثقلةً بما وصف منها.

وهذا – في زعمي – يتعارض – في إيحاء الصورة ودلالتها– مع صورة الضعيف الذي ينهض – بشق النفس – بالحمل الثقيل، ولا يعدم – والحالة هذه – وجهًا قطوبًا، وملامح كليلة، وألمًا ملموسًا، وإعياء محسوسًا، يثير في النفس عليه شفقة، وفي القلب رحمة، وذلك على خلاف ما يُثار فيها من رغبة

=وينخزل، والنياف: الارتفاع، والمنهل : مشرب الماء، والبان : شجر لطيف العود. تنظر: المعاني في ديوانه صـ١٢١، ١٢٢، هامش (٨، ٩، ١٠) .

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: لابن رشيق جـ٢/٢٩٥، طبعة دار الجيل، بيروت، لبنان، الخامسة ١٤٠١هـ– ١٩٨١م .

وتحفز، وتطلع وإعجاب، عند رؤيتها لامرأة مكتملة الأنوثة، تتدلل بردفها، وتتغنج بعجيزتها التي تكاد تقعدها كلما أرادت النهوض، وهو مما توفر بوضوح في صورة "صناجة العرب"(١) السابقة .

وتُعاود الحارثَ – بعد هذه الصورة الجامحة – آلام الغربة وآهات الفراق، ليعود – وقد أسلم النفس إلى واقع البعاد البغيض – إلى بكائياته، بعد أن نزحت "عائشة" مع زوجها الأمير "مصعب"، وهو بين الفينة والفينة، يطوف حول ديارها الصامتة العجماء، التي كانت من قبل ناطقة بكل ألوان الحيوية، صادحة بشتى أنواع الأنس والبهجة والغرام، يدور الشاعر معها بخياله تارة، وذاكرته أخرى، وثالثة بجسده وكيانه، قائلاً في حسرة ولوعة، وكأنه يخاطب نفسه :

هل تعرف الدار أضحتْ آيها عُجما كالرَّق أجرى عليها حاذق قَلَمَا
بالخيف هاجت شؤونًا غير جامدة فانهلتْ العين تذري واكفًا سَجما
دارٌ لبسرة أمستْ ما تكلمنا وقد أبنتُ لها لو تعرف الكلما(٢)

وفيها بكاء على ديار عائشة التي أضحتْ باهتة اللون، ذابلة المعالم، غير آثار دقيقة تتراءى فيها، كأنها في دقتها رَقٌّ، أو لوح نقش فيه كاتبٌ حاذقٌ خطوطًا دقيقة، تلوح هنا وهناك.

وكأن الحارث قد التقى في هذه الصورة مع قول "ذي الرُّمة":

فأصبحتْ بعد خَطّ بهجتها كأنَّ قفرًا رسومها قَلَمَا(٣)

بيد أن ذا الرمة قد قدَّم وأخَّر، وبدَّل وغيَّر، حتى رماه البلاغيون بالتعقيد

(١) لقب الأعشى بذلك؛ لأن لشعره واقعًا ورنةً عالية، وهو عند إنشاده شعره كأنما – لجلبته– يضرب على صنج، ولذلك لقب بهذا اللقب.
(٢) شعر الحارث صـ٩٥.
(٣) المعجم المفصل في شواهد العربية د/ إميل بديع يعقوب جـ٩٦/٧، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ– ١٩٩٦م، والبيت في اللسان بلا نسبة (خطط).

اللفظي، ووسموا بيته بالمعيب المستهجن، لكن بيت الحارث فيه من السلاسة والرقة، وروعة البيان، وخفة النطق ما يجعله يتفوق في مطلعه هذا على كثير من شعراء المطالع الذين وقفوا على الديار، حتى هيَّج مطلعه هذا أشجانه، وأوكف أحزانه، وأسكب مدامعه، وأثار فجائعه، باكيًا على أهلها، نادبًا على أنسها، بالخيف من مِنى في مكة المكرمة، بأفصح بيان، وأدل كلام؛ رجاء أن ترد عليه بعبارة، أو لطيف إشارة، لكنها لا تعرف الكلم، ولا تفصح عن مكنون الفؤاد؛ ولهذا التمس لها الحارث الأعذار، وتفهم مُرَّ الواقع، حتى لو تجرعه كؤووس علقم:

دار لبسرة أمست ما تكمنا وقد أبنت لها لو تعرف الكلما

بخلاف "عنترة العبسي" الذي ألح على ديار "عبلة" أن تتحدث، وأمرها – بالرجاء– أن تتكلم، ثم ألقى التحية عليها، ودعا لها بالأمان والسلامة فقال :

يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحًا دار عبلة واسلمي(١)

بيد أن الحارث في مقام آخر، وقصيدة أخرى، يحذو حذو عنترة في نداء الربع، وينسج على منواله، متأثرًا بمعلقته نداءً ووزنًا ورويًا. فقال:

يا ربع بُسْرَةَ بالجنابِ تكلمي وأبِنْ لنا خبرًا ولا تستعجم

مالي رأيتك بعد أهلك موحشًا خلقًا كحوض الباقر المتهدمِ(٢)

وتأثر الحارث بصاحب "عبلة" واضح وجلي في نداء الربع بتلهفٍ ورجاء. ويعلو زفير الحارث، ويرتفع وجيب قلبه، فيرفع عقيرته بالتفجع الممزوج بالتلهف مع "لو" في رجاء آملٍ قائلاً بعد البيتين السابقين:

وآها لبُسرة لو يدنو الأمير بها يا ليت بُسْرة قد أمستْ لنا أمَمَا(٣)

---

(١) ديوان عنترة صـ١٥، طبعة دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٤هـ– ١٩٨٤م.

(٢) شعر الحارث صـ٩٧، والجناب: موضع بعينه، وكحوض الباقر المتهدم أي كحوض البقر المتهدم، ومواردها البالي، شعره صـ٩٧، هامش (٢).

(٣) الأمم: القريبة، والمعنى: يا ليتها أمست لنا قريبة.

حلـــتْ بمكـــة لا دار مصـــاقبةٌ ... هيهات جيرون ممن يسكنُ الحرمَا[1]
يـا بُسْـرُ إنكـم شـطَّ البعـاد بكـم ... فمـــا تُنيلوننـــا وصـــلاً ولا نعمـــا
قد قلت بالخيف إذ قالت لجارتها ... أدام وصـل الـذي أهـدى لنـا الكَلِمـا
لا يـرغم الله أنفًـا أنـتَ حاملُـه ... بـل أنـفُ شـانيك فيمـا سـرَّكم رغمـا
إن كان رابكِ شيءٌ لست أعلمه ... مِـني فهـذي يميـني بالرِّضـا سَـلِما
أو كنتُ أحببتُ شيئًا مثل حبكمُ ... فـــلا أرحـــت إذًا أهـــلا ولا نعَمـــا
لا تَكليـني إلى مـن لـيس يـرحمني ... وقاكِ من تبغضين الحتف والسقما[2]
إنَّ الوشـــاةَ كثـــيرٌ إن أطعـــتهمُ ... لا يرقبـــون بنـــا إلاَّ ولا ذمَمَـــا[3]

والقصيدة – كما هو جليٌّ– رقيقة عطرة، يعلوها مسحة ندية من رجاء حانٍ من الحارث، يودفيها لو يدنو الأمير[4] "بعائشة"، أو تكون قريبة منه؛ لينعم بالوصال، ولكن هيهات هيهات ما يودُّ ويأمل، فقد حلتْ بمكة، وحل هو بدمشق فكيف يلتقيان بعد البين الذي "عدَّه ابن حزم من دواهي الدنيا، ولا شيء يعدله، ولو سالت الأوراح به، فضلاً عن الدموع كان قليلاً، وهو أخ الموت، وله شجى في القلب، وغصَّة في الحلق، لا تبرأ إلا بالرجعة[5].

(١) المصاقبة هي: الدار المقاربة، وجيرون: باب عند باب دمشق، شعره صـ٩٥ هامش (٥).

(٢) التفعيلة الأولى (مُسْتَعِلُنْ) في هذا البيت؛ دخلها زحاف (الطي) وهو حذف الرابع الساكن من التفعيلة وبه تصير "مُسْتَفْعِلُنْ" "مُسْتَعِلُنْ"، وهو زحاف يدخل بحر البسيط الذي جاءت على وزنه هذه القصيدة.

(٣) شعر الحارث صـ٩٤، ٩٥، ٩٦.

(٤) الأمير هنا هو عبد الملك بن مروان، وكان قد أنشده الحارث هذه القصيدة يذكر فيها عائشة، ويكنى باسم جاريتها "بُشرة أو بُسرة" ينظر شعر الحارث صـ٩٤.

(٥) ينظر: طوق الحمامة في الإلفة والإلاف لابن حزم الأندلسي صـ١١٧، ضبط نصه، وحرر هوامشه، د/ الطاهر أحمد مكي، طبعة دار المعارف، الثالثة ١٤٠٠هـ– ١٩٨٠م.

ومن ثَمَّ؛ فالحارث لا يزال يكابد ناره، ويكتوي بجمره، ويبث أشواق هواه إلى "عائشة"، ممزوجًا بالرجاء الرقيق الذي يذيب الصخر، ويندي الحجر، استدرارًا لعطفها، للتعطف على فَتىً فَنِي في حبها أو كاد، ومع ذلك لم يتمتع بوصل، ولا نعم بقرب.

يا بُسر إنكم شَطَّ البعاد بكم فمـا تنيلوننـا وصـلاً ولا نِعَمَـا

لكنه – على كل حال – على شوقه يتصبر، وبماضيه الجميل معها يتماسك ويتعطر، ويستحضر رغد ما فات، ووصل الذكريات، وذلك عندما دعتْ له "عائشة" بديمومة الوصال، مع علمها ما لذلك الوصال من مكانة في قلبه، فقد أهداها شوقه، وزفها عشقه على أجنحة حديثه المنمق، وبيانه الموشَّى، وهي على يقين من ذلك.

وفضلاً عن هذا "فإن قيافة النساء فيمن يميل إليهنَّ أنفذ من قيافة مُدلج في الآثار كما يقول ابن حزم"(١).

وها هو "الحارث" يحكي طرفًا من هذه المواقف الجميلة، ممزوجة بالدعاء لها، والابتهال إلى الله من أجلها :

قد قلتُ بالخيف إذْ قالتْ لجارتها أدام وصل الذي أهدى لنا الكَلما

لا يُـرغم اللهُ أنفًـا أنـتَ حاملـه بل أنف شانيك فيما سركم رَغما

ومما تجدر الإشارة إليه، أن الأبيات تكتنفها مسحة من أردية التعبير العذري، والغزل العفيف الذي شاع وذاع في بادية الحجاز، التي كانت مسرحًا له، يحمل طابعًا إنسانيًا شائقًا طريفًا، يجمع بين روعة التصوير، وصدق العاطفة(٢)، سمعه الحارث ، وتأثر به، وعاش مع شعرائه، وجلس بينهم، وتردد بين بوادي الحجاز، التي اشتهرت بهذا اللون من الشعر العفيف. ولا عجب من

(١) طوق الحمامة صـ١٤٦.

(٢) ينظر في تفصيل هذا: الغزل العذري في العصر الأموي د/ حسن عبد القادر مصطفى صـ٢١/ ٢٢، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، مطبعة السعادة.

أن يسير الحارث على نهج شعراء بني عذرة، أو على الأقل يتنسم من عبير شعرهم، ويتمثل من فنون قولهم، ويساير معهم أنواعًا من توسلهم للحبيبة، وألوانًا من التفاني في المعشوقة والتسليم للمحب، فثمة أمور تجمعه معهم في بوتقة واحدة.

فلقدد عُرف الحارثُ بخصال حميدة، واشتهر بشمائل عالية، منها: العفة والوفاء، والبر والتقى، فعلى الرغم من غزله وتشبيبه "بعائشة بنت طلحة" فإن غزله أخذ منحى العفة والتظرف[١]، وكيف لا، وهو من وجوه قريش، ورجالها ذوي الشأن والمنزلة فيها، شاعر شريف من أكابر بني مخزوم، روى عن أم المؤمنين عائشة – زوج النبي – صلى الله على زوجها، ورضي عن أبيها[٢].

وها هو يَسوق طرفًا من التوسل، وألوانًا من التحبب والتفاني، والتزلف وتبرئة النفس من كل شك وريب، يجول في قلب عائشة بنت طلحة تجاهه. يقول يخاطبها:

إن كان رابك شيء لست أعلمه ... مني فهذي يميني بالرضا سلما
أو كنت أحببتُ شيئًا مثل حبكم ... فلا أرحت إذًا أهلاً ولا نِعَمَا
لا تكليني إلى من ليس يرحمني ... وقاك من تُبغضين الحتف والسقما
إنّ الوشاة كثير إن أطعتهم ... لا يرقبون بنا إلاًّ ولا ذمما[٣]

ولا شك أنه بهذا التوسل على نهج العذريين سائر، وبمد يديه لمحبوبته بالرضا متحفز ومسالم، مخافة أن يريبها منه شيء لا يعلمه، ولئن وقع منه أمر من كل هذا، أو شيء منه – لا قدر الله– فلا أراح إذًا أهلاً ولا نعما، وهو دعاء على نفسه بالهم والغم، إن هو قصر في حبها، أو عَشِقَ غيرها؛ لأنها

(١) شعره صـ١١.
(٢) شعره صـ١٠ بتصرف.
(٣) شعره صـ٩٦، وهذا التوسل والرجاء اتجاه يسري في سائر شعره مع كل محبوباته بوضوح، وقريبًا من هذه الأبيات ينظر في شعره صـ١٠٧ في مخاطبة عائشة أيضًا.

ملاذه، وغايته، وركنه الشديد الذي يأوي إليه، ويحتمي بحماه.

ومع أنها عصية عليه أبيَّة، إلا أنه يتهالك في طلبها، ويخضع في رجائه لها – شأن العذريين – ألا تتركه، أو تكله إلى غيرها، ممن لا يرحمه، ولا يعطف عليه، ولا يقدر عشقه، وذلك كما وَضَّحَ في سالف أبياته المذكورة:

لا تَكليني إلى من ليس يرحمني وقاكِ من تبغضين الحتف والسقما

إنَّ الوشاةَ كثيرٌ إن أطعتهمُ لا يرقبون بنا إلاَّ ولا ذمَما[1]

وهكذا صور الحارث "عائشة" ممنعة مقنعة، مُدللة مترفعة، وهو بين يديها متسامح خاضع، متهالك متماوت، يترجاها، ويتوسل إليها، وكذلك كانت المرأة في شعر العذريين، ضنينة بخيلة، وكان عشاقهم لها خاضعين متهالكين، دائمي الضراعة، شديدي الخضوع أمام هذا الكبرياء الذي تمثله[2]. ولله در "جميل بن معمر" عندما صور ذلك بطرافة في قوله:

إذا قلتُ ما بي يا بثينة قاتلي من الحب قالت ثابتٌ ويزيدُ

وإن قلتُ رُدِّي بعض عقلي أَعِش به تولت وقالتْ ذاك منكَ بعيدُ

وأفنيتُ عُمري بانتظاريَ وعدها وأبليتُ فيها الدهرَ وهو جديد[3]

وعلى الرغم من تمنع عائشة بنت طلحة، وتهربها من الحارث، وذكرها إياه بأسلوب شديد، فإنها كانت تستلمحه، وتحب شعره فيها، تسأل عنه الرسل،

---

(١) التحذير من الوشاة باب واسع ذكره الإمام ابن حزم الأندلسي في كتابه الماتع : طوق الحمامة صـ٨٣، تحت عنوان "باب الواشي" إلى صـ٩٠، والشطر الثاني من البيت نظر فيه الحارث إلى قول الله تعالى:﴿**لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ**﴾ سورة التوبة الآية (١٠) ، وفيه دليل على ثقافة الشاعر الدينية، وإلمامه بالذكر الحكيم .

(٢) ينظر: الغزل العذري في العصر الأموي د/ حسن عبد القادر صـ١٦٠ .

(٣) ديوان جميل بثينة صـ٣٨، ٣٩، طبعة دار صادر بيروت ، الطبعة الثانية ٢٠٠٢م .

وعما قال فيها، ولكن في حياء المرأة، واعتزاز الأنثى[١].

المعشوقة الثانية: (أثْل)

وهي من معشوقات "الحارث بن خالد" الذي أذاب فؤاده في هواهن، وأقام عشقه على رضاهنَّ، وعمل طوال دهره على التقرب منهن، التماسًا للود، وطلبًا للوصل، يقول يخاطبها في حنان هامس:

أَثْـلَ جـودي علـى المتـيم أثـلا ... لا تزيـدي فـؤاده بـك خَـبْلا[٢]
أَثْـــلَ إني والراقصـــات بجمـــع ... يتبـــارين في الأزِمَّـــة فُـــتْلا
سـانحات يقطعـن مـن عرفـات ... بـين أيـدي المطـي حزنًـا وسـهلا
والأكـف المضـمرات علـى الركـ ... ـن بشعث سعوا إلى البيت رجْلى
لا أخون الصديق في السر حتى ... يُنْقـل البحـرُ بالغرابيـل نَقْـلا
أو تمـر الجبـال مَـرَّ سـحابٍ ... مُرْتَـقٍ قـد وعـى مـن المـاء ثِقْـلا[٣]

وتأتي "أَثْل" في المرتبة الثانية عند الحارث، بعد "عائشة بنت طلحة" التي احتلت المكانة العليا من قلبه، ومن شعره وشجوه، ولكن الملاحظ على شعر الحارث في "أثْل" أنه يحمل روحًا متهالكة في حبها، ونفسًا مُتعطشة لودادها، وذاتًا ذابلة، ومشاعر شاحبة، إلا أن تجود عليه بالوصال والدلال؛ لا

(١) شعره صـ٣٣ .

(٢) أَثْلَ: منادى مرخم مفرد علم، وحقه البناء على الضم، والأصل: أثلةُ، لكنه جاء بالفتح على لغة من ينتظر: أي من ينتظر الحرف المتبقي محل البناء، ليكون معه المنادى مبني على الضم، يقول الإمام السيوطي: في المنادى المرخم لغتان: الانتظار وهو نية المحذوف، وترك الانتظار وهو عدم نيته، والأول أكثر استعمالاً، وأقواهما في النحو، وجاء عليه ما قرئ: "ونادوا يا مالِ". همع الهوامع في شرح جمع الجوامع جـ٦٧/٢، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م .

(٣) شعره صـ٨١، ٨٢ .

سيما وقد وصف نفسه بـ"المتيم"(١)، الذي شفه الوجد، وأضناه الجوى، وهَدَّه البعاد، وذوبه السُّهاد، وأضَرَّ به الحب، وتورَّط في حبائل عشق "أَثْل" التي بسط لها شعره بَسطًا رفيقًا في همس وتودد، على بساط بحر "الخفيف"، وأوزان تفعيلاته الرفيفة المنفتحة(٢)، مُشْبهة في وقعها المتئد قطرات الندى، تنسكب على جبين الزهر ساعة الفجر، ولنا أن نتأمل وقع خطاها الهادئ... "أَثْلَ جودي" "فَاعِلاتُن" "على المتيـ" "مُتَفْعِلُن" "يَمِ أثلا" "فَعِلَاتُن" لا تزيدي" "فاعلاتن" "فؤادهُ" "مُتَفْعِلُن" "بِكِ خَبْلا" "فَعِلاتُن" .

ولقد جمع الحارث. في مستهل هذا صفتين من صفات العاشق المدنف وهما: كونه متيمًا، وكونه مخبول الفؤاد(٣).

وجمعها في هذا المقطع الشجيّ، ذي النداء النَّجِيّ "أَثْلَ" ، يدلف بالحارث إلى محراب العذريين، وباحات المولهين، حيث المعَبْدُ علوي، والساحات قدس أقداس.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه في خطابه لها ناداها نداء القريب، كما جَرَّدَ اسمها الحبيب – ساكن الوسط– "أَثْلَ" من حروف النداء تحببًا وتقربًا وتوددًا

(١) قال صاحب اللسان: "المتيم" المذلل، والتيم أن يستعبده الهوى حتى يذهب العقل منه، وتيمه الحب: إذا استولى عليه، والتيم العبد، وتيمه الحب أي: عبده وذلله فهو "متيم" اللسان: (تيم).

(٢) علاقة الوزن العروضي بالموضوع الشعري أمر بحثه كثير من الدارسين: منهم من أثبت اختصاص بعض البحور بموضوعات معينة...، ومنهم من دلل على أن كل البحور تستعمل في مختلف الموضوعات .
ينظر في تفصيل ذلك: المدارس العروضية في الشعر العربي، عبد الرؤوف بابكر السيد، صـ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، طبعة المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس بالجماهيرية الليبية، الأولى ١٣٩٤هـ– ١٩٨٥م.

(٣) المتيم سبق توضيحه، وأما الخَبْل بالتسكين فهو : فساد الأعضاء، حتى لا يدري كيف يمشي، وخبل الحب قلبه؛ إذا أفسده بخبله، والخَبْل والخَبَل جنون أو شبهه في القلب. ينظر اللسان (خبل).

وتحننًا، ثم آثر مناجاتها بأسلوب الترخيم، فلم يَقُلْ "أَثْلَةُ"؛ لذات السبب، بالإضافة إلى ذلك أن في الترخيم تدليلاً وتحننًا، وتعطفًا وتقربًا إلى من أصبح هواه في قبضتها، وفؤاده طوع أمرها، وملك يمينها.

ولقد تلاشى الحارث في عشقه، وآثر ذلك التلاشي وأحبه، وذلك عندما تحدث عن نفسه بأسلوب الغائب: "على المتيم"، "لا تزيدي فؤاده"؛ إظهارًا لضعفه، وتجسيدًا لانكساره أمام سلطان الحبيبة، ورغبة مقصودة منه أن تكون "أثل" في مطلع أبياته هي صاحبة الموقف والحضور، ومليكة القرار، وأما هو فإنه غائب الذات أمامها، لكنه حاضر الهوى مُتفتح الأشواق.

وواضح من تهالك "الحارث" عليها أن المرأة كانت ذات دلٍ وجمالٍ، وأن لها من اسمها نصيبًا كبيرًا، بحيث طابق في دلالته مسماه، فـ"الأَثَالُ: المجدُ، والأُثَالُ الجبلُ، وبهما سُمِّي الرجال، والأُنثى: "أَثْلَةُ" ومعناها: شجر عظيم طوال في السماء، مستطيل الخشب، أحمر الثمر، تُصنع منه القصاع والجفان لجودته؛ ولسمو الأَثْلَةِ واستوائها، وحسن اعتدالها، شبه الشعراء المرأة بها، إذا تَمَّ قوامها، واستوى خَلْقُها[1]"، قال كثير عزة :

وإن هي قامت فما أَثْلَةٌ بَعلْيا تُناوِحُ ريحًا أصيلا
بأحسن منها وإن أدبرتْ فأرخٌ بِجُبَّة تقرو خميلا[2]

وكأن "كثير عزة"، أراد بهما معشوقة "الحارث بن خالد" "أَثْل" في اعتدال قوامها، وامتشاق جيدها، واستواء عظامها. وتلذذًا بالنداء الحبيب إلى "الحارث" يكرر همسة إليها أُنْسًا وعِشْقًا:

أَثْلَ إني والراقصاتُ بجمعٍ يتبارين في الأزمة فُتْلا[3]

---

(١) لسان العرب "أثل" بتصرف.

(٢) الأرخ: الفتي من البقر، والبيتان في اللسان: (أثل) وفي ديوان كثير صـ١٩٩، شرحه عدنان زكي درويش، طبعة دار صادر بيروت، الأولى، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٥م.

(٣) ذكرت الأبيات كلها في صدر الحديث عن أَثْل" فارجع إليها.

ويقسم هنا "بالراقصات بجمع"، وهي الإبل المسرعات في سيرها، تؤم البيت الحرام، وتقصد مزدلفة، والمشعر الحرام، وسميت مزدلفة "جمعًا" لاجتماع الناس فيها للمبيت، وقد تبارتْ الإبل، وتسابقتْ في عدوها؛ للوصول إليها مقبلات من عرفات يحملن الحجيج، ويقطعن بهم المسافات الواسعة ما بين حَزَن وسهل، ثم أردف على القسم السابق قسمًا آخر عطفًا عليه قائلاً :

والأكف المُضمَّرات على الركـ ـن بشعث سعوا إلى البيت رجَلْىَ

وهي صورة أخرى لحجاج بيت الله الحرام، يُقسم بها الحارث، حيث استلمتْ أكفُّ الحجيج ركن الكعبة اليماني، وقد تلبدتْ شعورهم، وأتوا يلتمسون رضوان الله من كل فجٍ عميقٍ، راكبين مطاياهم، أو راجلي، يمشون على أرجلهم، يحدوهم الشوق، وتحملهم أجنحة الرضا والقرب من المولى سبحانه.

ولقد أقسم "الحارث" بكل هذه المظاهر الطيبة، والمشاعر المقدسة، والجو المتعبق بمن يعظمون شعائر الله، من حجاج بيته الآمن، على نفيه الجازم، ورفضه الصارم، خيانة الصديق البتة:

لا أخون الصديق في السر حتى يُنقـــل البحـــرُ بالغرابيـــل نقـــلا
أو تمـــر الجبـــال مـــر ســـحاب مُرْتَـقٍ قـد وعـى مـن المـاءِ ثِقْـلا[1]

ونلحظ أن الشاعر قد علق هذه الخيانة البغيضة إلى نفسه على مستحيل، وهو نقل مياه البحر بالغرابيل، أو مرور الجبال وسيرها من أماكنها كالسحاب الكثيف يَمُرُّ مثقلاً بالماء.

ولخطر هذا السلوك، وعِظَمِ ذنبه في نفس الحارث، عَظَّمَ القسم عليه، بما يثير في النفس الخشوع والخضوع والتجرد لله –ﷻ– في تلك البقاع الطاهرة.

---

(١) أو في صدر البيت بمعنى (التخيير)، والمعنى: لا أخون الصديق حتى ينقل البحر بالغرابيل، أو تمر الجبال مر السحاب. ينظر: معاني الحروف للإمام الزجاجي صـ١٣، حققه وقدم له د/ علي توفيق الحمد، جامعة اليرموك، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ– ١٩٨٦م .

وظاهر في سياق الأبيات أن "الحارث" قصد أن يبرئ ساحته من هذه الصفة الذميمة "الخيانة" أمام حبيبته "أَثْل" ، وربما كان لذلك الأمر سببه الواضح بينهما، مما دفعه إلى إبرام قسمه بهذه الصورة القوية، وإلا فما العلاقة بين حديثه الهامس إلى "أَثْل" ، وبين حديثه الحازم نحو علاقته بالصاحب خيانةً ووفاءً؟!

لكنه على كل حال يدير الحوار مرة أخرى إليها، ويفتتحه باعترافٍ منه أنَّ الله أنعم عليه بهذا الوجه الذي قرت به عينه؛ ولهذا فهو دائم الترحيب به والتهليل له:

أنعم الله لي بذا الوجه عينًا ... وبه مرحبًا وأهلاً وسهلاً
حين قالت لا تفشين حديثي ... يابن عمِّي أقسمتُ قلتُ: أجل لا
اتقي الله واقبلي العذر مني ... وتجافي عن بعض ما كان زلا
لا تصدي فتقتليني ظلمًا ... ليس قتل المحب للحِبِّ حِلاّ
ما أكن سؤتكم به فلك العُتـ ... ـبى لدينا وحقَّ ذاك وَقَلاَّ[1]

والأبيات تحكي موقفًا بين الحبيبين في حوار دار بينهما – في جو دافئ من المشاعر الرقيقة– لما أن قالتْ له "أثل" في رجاء وادع: "لا تُفشين حديثي يابن عمي أقسمتُ..." وهو لا شك حديث الهوى، وكلام العشق، وهمس الشوق، والمرأة – بطبيعتها– لا تُحب إفشاء سرها، وفضح عشقها، وكم هي مشفقة من هذا، تخافه وتحذره[2]؛ لذا أقسمتْ عليه، فأشفق عليها شاعرها،

---

(١) شعر الحارث صـ٨٢، ٨٣ .

(٢) وذلك مثلما أشفقت معشوقة امرئ القيس على نفسها، وقد فضح أمرها ، وأفشى سرها بوصوله إليها في قوله:.

سموتُ إليها بعد ما نام أهلها ... سمو حباب الماء حالاً على حال
فقالت سبّاك الله إنك فاضحي ... ألست ترى السمار والناس أحوالي

ديوانه صـ١٤١.

ورعى لها قرابتها، واحترم خصوصيتها، وأجابها بعد رجائها وقسمها قائلاً : "قُلْتُ: أجل لا" أي: نعم لا أفشي الحديث، ولا أوغر صدرك عليَّ أبدا!

وحق لنا أنْ نتوقف عند المعاني والظلال، والإيحاءات التي ترفل في ثوب الحنان الدافئ، المغلف بالعفاف والنبل في قول "أثل" للحارث: "لا تفشين حديثي يابن عمي" في نداء القرابة، والاستغاثة بأواصر الدم، وحبال الأخوة، والتمسك بالرُّحمى "يابن عمي"؛ واستنفارًا لكل همة في نفس الحارث، وإيقاظًا لحقوق الرحم، وواجبات العترة؛ ومن ثَمَّ فقد سارع "الحارث" بجواب النهي عن إفشاء السر، إشفاقًا عليها، وإدراكًا لخطورة الموقف المتأزم في نفس "أثْل"؛ بسبب خوفها من افتضاح أمرها، وإذاعة سرها؛ لذا قال في حزم وجزم: "قلتُ: أجل لا" ويتحول "الحوار القصصي الرائع" بين "الحارث وأثل" إلى ما يشبه الإرشاد والنصح قائلاً لها في رجاء وتودد:

اتقي الله واقبلي العذر مني وتجافَيْ عن بعض ما كان زلاَّ
لا تصدي فتقتليني ظُلما ليس قتل المحب للحِبِّ حِلاَّ
ما أكن سؤتكم به فلك العُتْـ ـبى لدينا وحقَّ ذاك وقلاَّ

وما أجمل وأرق قوله: "ما أكن سؤتكم به فلك العتبى لدينا" والعتبى: الرضا ، والرجوع عن الإساءة إلى كل ما يسر المخاطَب، ومنه قول النبي –ﷺ– يخاطب ربنا الأكرم: "لك العتبى حتى ترضى"(١). وهذا الرضا الذي فرضه الحارث على نفسه، وعده من حق "أثْل" عليه، قليل عنده، إذا ما قيس بأمور أخرى؛ لأنها عنده بمكانة ومنزلة سامقة: "وحق ذاك وَقَلاَّ".

وعلى الجملة: فإن الأبيات كلها تسري فيها روح العذرية بوضوح، وتنبتُ معها معاني العفاف، وتنمو بنموها أغصان الترفع؛ لتثمر ثمار الطهر والنقاء،

(١) من دعائه –ﷺ– عندما عاد من رحلته إلى الطائف، يدعوهم إلى الإسلام. البداية والنهاية لابن كثير جـ١٤٧/٣، طبعة دار المعرفة، بيروت لبنان، الثانية ١٤١٧هـ–١٩٩٧م.

ويظهر الحارث فيها بصورة تشف نُبلاً، وتسمو رفعةً، ويتلاشى إلى درجة تقترب من درجة الفناء في المحبوبة، وهي درجة تنقطع معها أنفاسنا اشفاقًا عليه، وتعاطفًا مع حالته، التي يذرف فيها كل دموع الرجاء بقبول عذره، ويبث خلالها كل زفرات الأسى لعدم صده وقتله، ويهبط من شموخ العزة والمكانة إلى أنهار الحب وبحار الشوق، ليكون فيها كعصفور بلله القطر، أو يمسي في حباله: قطاة عزها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح، تمامًا كما حدث لمجنون بني عامر(١)، وقد فعل به العشق والشوق أفاعيله.

وهو – في كل ما سبق وغيره – يجمعه مع هؤلاء العذريين حُبُّ الوصال، وذم الهجران، والبكاء من النأي، والجزع من سخط المحبوبة، والترحيب برضاها، والفرح بين يديها. يقول الحارث:

لم أُرحب بأن سخطتِ ولكن مرحبًا أن رضيت عنَّا وأهلا
إن شخصًا رأيته ليلة البد ر عليه أنثني الجمال وحَلاَّ
جعل الله كل أنثى فداء لك بل خدَّها لرجلكِ نَعْلا(٢)

والأبيات وما بعدها تَوَلُّه في جمال "أُثْل" ، وتراتيل في محراب حسنها الآسر، ووجهها المقمر، الذي ينعكس شعاعه وضياؤه على كل من طلع عليه، ويحل سناه على صفحة من يراه، أو يتملى محياه.

والعجب الذي يدعو إلى الدهشة، وهو أن الحارث قفز بخيالنا قفزة بعيدة شَدَهَنا بها، بل وجعل كُلَّ من تقرأ هذه الصورة من النساء تُصوِّبُ ناظريها إلى "أُثْل" تحسدها؛ لمكانتها من شاعرها تارة، وتارة أخرى تتمنى أن تحل محلها

---

(١) يقول قيس بن الملوح :

كأن القلب ليلة قيل يُغدى بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتتْ تجاذبه وقد علق الجناح

ديوان مجنون ليلى صـ٦١، طبعة دار صادر بيروت، الثالثة ٢٠٠٩م .

(٢) شعره صـ٨٣ .

من قلبه ومشاعره وخياله في قوله لها: "جعل الله كل أنثى فداء لكِ..."، ولا شك في أنه دعاء ترتاح إليه كل ذات خضاب، ويُرضي مشاعرها، ويملأ أذنها صوابًا، ونفسها إعجابًا، وبالها رضىً، وأجمل منه تيهًا وخيلاءً ونرجسية ودلالاً، ختام البيت، الذي أضرب به الحارث عن دعاءٍ، بواسطة "بَلْ"؛ ليرتقي في دعاءٍ آخر، تتيه به "أثْل" على أترابها، وتشمخ بأنفها على أقرانها، وتحلق في سماء عزتها، وتطير في أبراج أنوثتها، في قوله لها عن كل أنثى: "بل خدها لرجلك نَعْلا"، وأي أنثى ترضى – بجدع أنفها– أن يُجعل خدها نعلاً تلبسه "أثْل" في رجلها، إلا إذا أصابتها دعوة الحارث الضارعة الحارة!

ولا يزال "الحارث بن خالد" المحب الوامق، والعاشق الوله، يهدي باقات الغزل، ويبث ألوان الثناء لـ"أثْل" قائلاً لها:

وجهك البدر لو سألتُ به المز نَ من الحسن والجمالِ استهلا
إن عند الطواف حين أتته لجمالاً فَعْمًا وخُلْقًا رِفَلا
وكُسينَ الجمال إن غبنَ عَنْها فإذا ما بدتْ لهنَّ اضْمَحَلاَّ[1]

فـ"أثْل" – في نظره – هي غاية الجمال، وإليها ينتهي الحسن، "فوجهها البدر"، جملة قصيرة، بيد أنها جملة جامعة لكل ألوان الحسن والبهاء، والسنا والضياء، وهي من أساليب القصر الرائعة، التي أضفتْ على المعنى جلالاً وخلابة، حيث جعل وجهها البدر، وليس كالبدر، بل كل ما للبدر من جمال – لا شك – ينسحب منه إلى وجه "أثل" الوضيء، الذي تستهل لجماله المزن، وتهطل لحسنه السحبُ، وينهلُّ لرقته وسناه الغمام.

ويرسم الحارث صورة لـ"أثْل"، وقد أقدمت على الطواف – في زينتها– وعنده تلتقي وجوه الحسان، وتختلط في ساحته الأشكال والألوان، ويجتمع الحسن المبثوث في نساء الكون كله عنده، ما بين العربيات النجلاوات كالدُّمى، والبربريات المالئات الأعين بهاءً، الآخذات بالمهج والقلوب،

(١) شعره صـ٨٥.

والمولدات الفاتنات اللائي يَفْتِنَّ الحليم بغنجهن، ويخلبن الألباب بحلاوتهن، وغيرهن كثيرات، وهذا ما أراده الحارث بقوله:

إن عند الجمال حين أتته لجمالاً فَعمًا وخُلْقًا رِفَلا

غير أن هذا الجمال الفائض الذي يملأ وجوه الحسناوات عند الطواف، والذي عبر عنه الشاعر، – واصفًا له – بقوله: "فَعْمًا" يريد "مُمتلئًا فائضًا"، من إلباس المعنوي ثوب المحسوس، حيث وصف الجمال بالامتلاء. ويزيدُ من هذا الجمال المسبى ما اتَّصفن به من الخُلُق الجميل، الذي يُشبع الجمال كمالاً، ويجعل الدلال جمالاً.

كل هذا يظهر – في صورة جلية– لهؤلاء الحسناوات، شريطة إن غِبْنَ عن "أثْل" ولم تظهر معهن بحسنها الآسر، وجمالها الفائض:

وكُسين الجمالَ إن غِبْنَ عنها فإذا ما بدتْ لهن اضمحلاَّ

ولقد آثر الحارث التعبير الرائع "إن غبن عنها" على "إن غابت عنهن"؛ ليدلل على أن "أثل" تلك الفاتنة، دائمة البهاء، حاضرة الجمال، لا ينفك عنها بحال.

غير أن هذه الصورة تنعكس إلى الضد إن بَدَتْ "أثْل" لهن، وخَطَتْ مجلوة في حُسْنِها بينهن، فإن ظهرتْ معهن، وبرزت إليهن، اضمحل جمالهن، وغاب بهاؤهن، وانذوى ضياؤهن: "فإذا ما بدتْ لهن اضمحلا". ولنتأمل "اضمحلا" وما تحويه من معاني الاختفاء والسقوط والهدم وغيره.

ولا يرتاب ناقد في روعة هذا المعنى، وجماله وطرافته، وهو من فرائد الحارث بن خالد، يشهد له بخيال خصيبٍ، وتحليق شعري رائق، وفريد.

ولقد أخذ هذا المعنى "أبو تمام" فطوعه وأجلاه، عندما قال يصف محبوبته في ضرب من ضروب المبالغة قائلاً:

بيضاءُ تَسْرِي في الظلامِ فَيَكتسي نُورًا وتَسْرُبُ في الضياءِ فَيُظْلِمُ[1]

وواضح ما بين البيتين من تشابه وتلاقٍ في وصف الفتاتين، غير أن الحارث أجرى بيته على الحقيقة التي اكتستْ بشيء من المبالغة المقبولة، وَوُشِّيتْ بالصدق الفني الذي أضفى على الصورة جمالاً وحلاوة، عندما سلط الوصف على "أثْل"، وربط الجمال الحقيقي الثابت بها حاضرة وشاهدة، وأما ما عداها– ممن يحضرنَ الطواف– فجمالهن المدَّعى المتغير متوقف في وصفهن به على غياب "أثْل" عنهن؛ لأنها بحضورها تَسْلبهنَّ الحسن كله، بل ويضمحل الجمال عنهن قاطبة.

وأما أبو تمام الذي أخذ – في زعمي – عنه، وتأثر به، فإنه قد شط في الصورة، وأوغل في الخيال، وبَعدَ عن أطراف الحقيقة التي تمسك بها الحارث، ولكن يحسب له ويحمد لخياله، أنه أعم في الوصف من الحارث، وأوسع معنى، وأشمل؛ لأن فتاته التي تُنير الظلام بجمالها، وتخزِي النهار بضيائِها – حتى تخاله مظلمًا بالمقارنة بها– هي ذاتها التي تنشر ضياءها على ما تحت الظلام كله من إنسان وحيوان وجمادٍ، وغيره من أفراد الطبيعة ومحتواها، وتخزى – بالمقابل – ما يشمله النهار، وينضوي في ساعاته من الأنواع السابقة.

ولئن ضيقنا واسعًا عند هذا الشاعر، وقلنا بأنه لم يقصد في وصف هذه الفتاة البيضاء اللامعة الريانة إلا أنها تكسو الظلام ضياءً، وتُسبل على النهار ظلامًا فقط لكفاه ذلك في التميز على الحارث، وربما قلنا: أنه أثرى المعنى، وزاد على صاحبه، ووسع في الصفة، وولد في الصورة، وطار مُحلقًا في دروب المبالغة، مستعينًا بأجنحة الخيال وأشرعته.

وعلى أية حال فهيهات أن يقول ناقد في تذوق الشعر كلمةً أخيرة لأن

(١) شرح ديوان أبي تمام صـ١٤١، ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا الحاوي، الشركة العالمية للكتاب، طبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت، الأولى، ١٩٨١م.

"ناقد الشعر – وإن علا– يتملكه دائمًا إحساس المنقطع دون أقصى مرامي الشعر، ويلوح له وراء كل حَسَنٍ أبِيٍّ نافرٌ، يطلبه ويظن أنه مدركه فيفوته، فلا هو يدركه، ولا هو يتركه. ومعنى هذا أن النصوص الشعرية العالية لا تقال فيها أبدًا كلمة الفصل، وأقصى ما يقوله الناقد القادر على النص: تلك قضيةُ طبعي، وهذا مُنتهى وسْعِي، وليس له أبدًا أن يقول: لا معقب لِحُكمي"(١).

وعلى فرضية تفوق أبي تمام، فإنه يحسب للحارث قصب السبق، وتفتيق أكمام المعنى، والوصول إلى الهدف المنشود من وراء صورته.

وخلاصة القول : نستطيع أن نقرر بأن "الحارث بن خالد المخزومي" قد ظهر في غزله لـ"أثل" بمظهر العاشق، وبدا في ثوب المتيم، فتودد إليها، ووقف بين يديها، "ونزف البكاءُ دموع عينه"(٢)؛ لعله يصيب رضاها، ويحيا بمحياها، فينعم باله بالقرب، ويقر فؤاده بالوداد، وهو في جميع كل هذا كالعذريين، يرضيه القليل، ويقنع منها باليسير، وهذا كله صفة المحب، وطبيعة العاشق، وسجية الوامق الملهوف.

المعشوقة الثالثة: ليلى بنت أبي مرة بن عروة بن مسعود الثقفي .

هي ليلى بنت أبي مُرة بن عروة بن مسعود الثقفي، أبوها أبو مرة بن مسعود من وجوه ثقيف وأعيانها، وصاحب المواقف والمشاهد، وأمها صاحبة الحسب والنسب بين نساء مكة، إذْ هي ميمونة بنت القرشي أبي سفيان بن حرب، سيد مكة، الذي يعشق المجد، ويميل إلى الوجاهة، ويحب الفخر، وليلى بهذا كله تُعشق، وإليها تخفق القلوب، وتميل الأفئدة، لا سيما إذا أُضيف إلى رصيدها السابق جمالها الفائق، وحسنها الآسر، ودلالها المُسْبِي، وخلابتُها

(١) تذوق الشعر منهج وتطبيق د/ كمال لاشين صـ٨، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ– ١٩٩٩، شركة ناس للطباعة بعابدين.

(٢) هذا صدر بيت لعمر بن أبي ربيعة يقول:

نزف البكاء دموع عينك فاستعر عينًا لغيرك دمعها مدرار

ديوانه صـ١٣٩ ، طبعة دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ– ١٩٧٨م .

الشادهة، التي دفعت "الحارث" أن يجعلها شمس النهار تطوف بالعشي حول البيت العتيق يقول:

أطافت بنا شمس النهار ومن رأى مـن النـاس شمسًـا بالعشـاء تطـوف

أبـو أمهـا أوفى قـريش بذمـةٍ وأعمامهـا إمـا سـألتَ ثقيـف(١)

وواضح أن "الحارث" كان يتعقب الحسناوات في الطواف، ينظر إليهن، ويتفرس حُسنهن، وذلك مثلما أخبر في شعره عن عائشة بنت طلحة وأثل، وليلى بنت أبي مرة وغيرهن، وهو في ذلك الأمر يحاكي صديقه ونظيره "عمر بن أبي ربيعة الذي اشتهر بذلك، وحرص كل الحرص على تعقب النشاء الجميلات أثناء الطواف والسعي ورمي الجمرات:

ومن مالئ عينيه من شيء غيره إذا راح نحو الجمرة البيض كالدُّمى(٢)

غير أن الحارث المخزومي أشد حياء، وأصون عرضًا، وأسبل سترًا من ابن أبي ربيعة، الذي أخرج بشعره وغزله صاحبات الخدور من خدورهن، وَشَدَهَ بسحر جماله ربات الحجال، وكان لشعره موقعًا في القلب، ومدخلاً لطيفًا في النفس، حتى قيل عنه: "لو كان شعر يسحر لكان شعر ابن أبي ربيعة"(٣).

والواقع أن الشاعرين "عمر" و"الحارث" بينهما تشابه وتلاقٍ، ويكاد يقتربان في بعض الأفكار، ويلتقيان في بعض المواقف والمعاني والصور، وطريقة العرض في "الحوار القصصي" الذي شاع في أشعارهما، وكثر في شعر عمر عن صاحبه، وهذا كله راجع – في تقديري – إلى أن كليهما عاش في بيئة واحدة، وفي زمن واحد، وفي مكانٍ واحدٍ، يجمعهما البيت الحرام،

(١) شعر الحارث بن خالد صـ٧١.

(٢) البيت لعمر بن أبي ربيعة وهو في ديوانه صـ١٥ تحقيق عبد الرحمن المصطاوي، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م .

(٣) والقائل هذا القول هو: عبد الله بن مصعب ، قاله لظبية مولاة فاطمة بنت عمر بن مصعب، وقد دخلت على نسائه بشعر عمر. الأغاني جـ١/ ٨٢، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ومشاعر الحج الأكبر، الذي يعدانه ساحة واسعة، وموسمًا كل عام ليتفرسا فيه الحسن، ويميزا – من خلاله– الجمال والبهاء.

يقول الحارث يحكي طرفًا من حوار قصصي دار بينه وبين رسول ليلى بنت مرة، وذلك عندما أرسلته له:

لقد أرسلتْ في السَرِ ليلى تلومني وتـــزعمني ذا مِلَّـــةٍ طرفًـــا جَلْـــدَا
وقد أخلفتنا كل ما وَعَدَتْ به ووالله مـــا أخلفتهـــا عامـــدًا وعْـــدا
فقلتُ مجيبًا للرسول الذي أتى تـــراه لـــك الـــويلات مـــن قولهـــا جـــدا
إذا جئتها فاقْرَ السلام وقل لها دعي الجور ليلى واسلكي منهجًا قصدا(١)

وأطراف الحوار ليلى ورسولها، والشاعر المحب الذي أرسلتْ إليه ليلى في السر تلومه، وتزعم – خطأ – أنه قد سئم وصالها، وفرق ودها، وكره قربها، وبحث عن غيرها؛ يريد التحبب إليها، والتقرب منها، وهي دعوى قد ردَّ عليها الحارث بالبيت الثالث، مجيبًا رسول ليلى بعد أن تَظَلَّمَ من خلف ودَّها، وانتكاص عهدها، على حين أنه ماض على العهد، منفِذٌ للوعد، ما تعمد الخلف، وهو موصول المودة، ممدود الوداد، على كل حال تكون عليه ليلى؛ لذا أجاب رسولها بنكران زعمها، ورد ظنها، داعيًا عليه، زاجرًا له قائلاً: "لك الويلات"، أتراها جادة فيما زعمتْ، عازمةً فيما اعتقدتْ من ملالي لها، وسئمي من وصالها؟!!

وَيُحَمِّلُ الحارثُ رسول "ليلى" أمانة، ويوصيه وصية:

إذا جئتها فاقرْ السلام وقل لها دعي الجور ليلى واسلكي منهجًا قصدا
أفي مكثنا عنكم ليال مرضتها تزيدينني ليلى على مرضى جهدا
تعدين ذنبًا واحدًا ما جنيته عليَّ وما أحصي ذنوبكم عَدَّا(٢)

وهي وصية مشوبةٌ برجاء، معبقةٌ بوداد والتماس، فبعد قراءة السلام

(١) شعره صـ١١٥، ١١٦ .
(٢) شعره صـ١١٦، ١١٧ .

عليها ممن يعشقها، ويبث إليها أشواقه، دعاها أن تدع الجور، وتترك الحيف عليه، وأن تسلك مسلكًا معتدلاً، يُحقق المودة بينهما، ويثمر في قصده ثمار المحبة والقرب.

ويبدو لي ارتفاع لهجة العتاب، وعلو نبرة اللوم من الحارث على ليلى بسبب ما عاناه من جهد وعنتٍ وتعب، لما أن مكث بعيدًا عنها في ليالي مرضه، وأيام سقمه، في الوقت الذي عَدَّتْ "ليلى" غيابه عنها، وبعاده منها من ذنوبه التي لا تُغْفَر أبدًا، بينما هذا الذنب في نظر الحارث ذنب لا يؤاخذ عليه؛ لأنه لا يملك لنفسه شيئًا من مرض أو سقم أو إعياء، لكن لليلى من الذنوب ما لا يُحصى عنده ولا يُعَدّ، من ألوان الخلف وصنوف الجفوة، وأنواع الرفض بـ"لا" و"بألا أستطيع، وبالمنى"، وغير ذلك مما عُرِفَ عند المرأة، من تمنع وتثاقل على من يهواها، أو تشعر أنه قد غرق في بحر هواها حتى ترقوته، وكأني بالعباس بن الأحنف، وقد نظر إلى ذنب الحارث – وقد وعدته ليلى– وإلى ذنوب ليلى التي لا تُحصى – في نظره– فأعجبه بيت الحارث "تعدين ذنبًا واحدًا..." فتمثل قائلاً:

فما عذرها نفسي فداها ولم تَدَعْ على أعظمي لحمًا ولم تُبق لِي لبَّا
وتعتد ذنبًا أن أبوح بحبها ولو قتلتني لا أعد لها ذنبا[1]

ونكاد نجزم بأن الحارث بن خالد كان واحدًا من هؤلاء النبلاء مع "ليلى بنت مرة"؛ لأنه بمقدار العتاب عليها، بمقدار الشوق لها، والانقياد إلى أوامرها وميولها، وبقدر التحرق إليها، والتألم من ذنوبها، وتعمد هجرها له وبعادها عنه، بقدر ما كان التمسك بها، والانجذاب نحوها، والتلذذ برجوعها، وحوبتها إليه؛ "لأن فرحة الرجعة، وسرور الرضى يعدل ما مضى، ولرضى المحبوب بعد سخطه لذة في القلب لا تعدلها لذة، ومومق من الروح لا يفوقه شيء من

(١) ديوان العباس بن الأحنف صـ٦٦، طبعة دار صادر، الثانية ، ١٤٢٩هـ– ٢٠٠٨م .

أسباب الدنيا"[١].

ومع هذه الصرخة المدوية من العتاب واللوم المشوبان بالتودد والتقرب – كما قلنا – نرى الحارث يُقَدِّم إلى ليلى أدلة الولاء، وبراهين الانتماء، وعرابين المحبة، وحجج التذلل، –شأن العذريين – قائلاً يخاطبها:

فإن شئت حرمتُ النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نُقاحًا ولا بردا
وإن شئتِ غُرْنا بعدكم ثُمَّ لم نَزَلْ بمكة حتى تجلسي قابلاً نَجْدا[٢].

ولعنا قلنا فيهما شأن العذريين؛ لأن الحارث في بيتيه قد ربط انقياده وحركته وسلوكه بإرادة "ليلى"، وجعل وجهته أني وجهته، حتى أصبحت مشيئتها هي مدار حياته، فبها يحرم على نفسه "النقاح والبرد" أي ما لَذَّ من ماء، وما عذب من ريق، وبمشيئتها أيضًا يتعين مكان إقامته في الغور، وهي بلاد تهامة وما يلي اليمن[٣]، أو يكون في مكة حتى تأذن له ليلى، أو تأتي هي نجدًا لتقيم فيها .

وهو في كل هذا سعيد بانقياده بها، مسرور بتلبيته رغبتها، وتنفيذ إرادتها، وتحقيق مشيئتها، وقد عَبَّد الحارث هذا الباب مع غيره من الشعراء؛ ليدلف إليه كل العذريين من بعده، ويسلموا انقيادهم لمعشوقاتهم، ويجعلوا هواهم في رضاهن، وحبورهم في تنفيذ ما تمليه المحبوبة، أو تطلبه الحبيبة، مهما كانت نتيجته أو عاقبته. ولله در العباس بن الأحنف في قوله:

سلامٌ عليكم عَذِّبوا أو تعطَّفوا سَأَجْهَدُ أن تَرْضَوا لأُدرك أو أُبْلِي[٤]

---

(١) طوق الحمامة لابن حزم صـ١٠١.

(٢) شعر الحارث صـ١١٧.

(٣) يقال للرجل: قد أغار الرجل أي دخل تهامة، وغور كل شيء قعره، قال الأزهري: الغور: تهامة وما يلي اليمن. ينظر في هذا: معجم البلدان لياقوت الحموي جـ٤/٢٤٥، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى ١٤١٠هـ– ١٩٩٠م.

(٤) ديوان العباس بن الأحنف صـ٢٣٦.

وكأن العباس قد وقع على بيتي الحارث السابقين: "فإن شئت حرمتُ النساء سواكم..." فقال بنص شطره الأول يخاطب محبوبته "فوز":

فإن شئتِ حرمتُ النساء سواكمُ بحلف وأيمان وحُق لكم حلفي(١)

ولقد زاد العباس في بيته هذا على الحارث – مع أخذ الأول عنه– ؛ لتأخره زمانًا، فدلل على الوفاء، وبرهن على الولاء لـ"فوز"، وذلك بحلفه، وتعقيد أيمانه في كونه صادقًا فيما يقول، راضيًا بما قضى على نفسه، جاعلاً هذه الأيمان حقًا للحبيبة عليه، ولقد أبرمها دليلاً على الوفاء لها، والإذعان الكامل لمرادها ورغبتها، بينما اكتفى الحارث بعرض الأمر عليها، مشروطًا بمشيئتها، دون أن يُعَقِّدَ أيمانًا أو يبرم أقسامًا مثلما فعل العباس بن الأحنف.

ولعل شاعرًا آخر يأخذ بيد "الحارث" إلى ساحات الهوى العذري، ألا وهو "قيس بن الملوح العامري" ابن زمان "الحارث"، ورائد مدرسة الغزل العفيف، والهوى العذري في العصر الأموي.

ووجه الشبه بين الشعراء الثلاثة "الحارث وقيس وابن الأحنف" هو إطلاق المشيئة للمحبوبة، والرغبة الصادقة في تنفيذ مرادها، والإذعان لها، يقول ابن الملوح في ليلى العامرية:

وأنت التي إن شئتِ نَغَّصْتِ عيشتي وإن شئت بعد الله أنْعمتِ باليا(٢)

وأنت التي ما من صديق ولا عِدَا يرى نِضْوَ ما أبقيت إلا رثى لِيا(٣)

إذًا فتكدير عيشته، وتنغيص حياته معقودة بمشيئتها، وإنعام باله، وإشراق مآله منوط بإرادتها – بعد الله – جل في علاه –، وهو احتراز رائع وبديع – بعد الله –، ودليل تَدَيُّن ابن الملوح الذي ما فتئ يدفع عن نفسه ظن السوء في خروجه عن الملة، أو حيادة عن الدين في قوله بعد ذلك:

---

(١) ديوان العباس بن الأحنف صـ٢٠٨.

(٢) ديوان مجنون ليلى صـ٢٣٣، طبعة دار صادر بيروت، الثالثة، ٢٠٠٩م.

(٣) السابق صـ٢٢٩.

ومـا بِيَ إشـراكٌ ولكـن حبهـا كعودِ الشَّجى أعيا الطبيب المداويا(١)

وملح آخر في البيت الأول لابن الملوح، وهو أن الشاعر في تكدير عيشته أسند ذلك إلى مشيئة "ليلى"، ولم يذكر معها مشيئة "المولى" – سبحانه– تأدبًا مع الله – جل في علاه– وتنزيهًا لذاته في أن تتسبب في تكدير العيش – حاشا وكلا– بينما ذكر ذلك في الشطر الثاني، في جانب "إنعام البال"؛ حيث جعل مشيئة "ليلى" بعد مشيئة "الحق" – سبحانه– إقرارًا له بالإنعام والفضل، ودفعًا للتوهم القاضي بأن الشاعر نسي أن يذكر مشيئة الله قبل كل مشيئة.

وهكذا ظل "الحارث بن خالد" باقيًا على حبه لليلى بنت أبي مرة، وفيًا لعهدها، منذ أن وقعتْ عينه عليها، يتعشقها كما يتعشق أصحاب الهوى العفيف معشوقاتهم، يزعن لرغبتها، كما فعل صاحباه "ابن الملوح وابن الأحنف" وغيرهما، ولا يزال كذلك حتى فارقت الحي، وظعنتْ بعيدة عنه، فحام حول حماها، وحن لعهودها القديمة، ومنزلها المقفر قائلاً :

ظللتُ وظل القوم من غير حاجة لدن غدوة حتى دنتْ حَزَّة العصرِ(٢)

يُبكُّون من ليلى عهودًا قديمةً وماذا يُبكي القوم من منزلٍ قفرِ(٣)

المعشوقة الرابعة: أمُّ بكر

وأم بكر هذه هي أيضًا من اللائي فَتَنَّ الحارث بن خالد المخزومي، ولها قصيدة وحيدة هي نصيبها من شعره، غير أنها – مع وجازتها – قد قَصَّتْ علينا قصةَ " أم بكر" مع حبيبها الحارث عندما ملكت لُبَّه، وسلبت فؤاده، ورمته بسهام لحاظها، فأرسل إليها رسوله قائلاً له:

ألا قُلْ لذات الخال يا صاح في الخَدِّ تدومُ إذا بانتْ على أحسن العهدِ

---

(١) السابق صـ٢٣٣ .

(٢) الحَزَّةُ : الساعة، يُقال: أي حَزَّة آتيتني قضيتُ حقك. اللسان (حزز).

(٣) شعر الحارث صـ٦٧ .

ومنهـا علامـات بمجـرى وشـاحها وأخـرى تزيـد الجيـد في موضـع العقـدِ
وترعـى مـن الـود الـذي كـان بيننـا فمـا يسـتوي راعـي الأمانـة والمبـدى
وقُلْ قد وعدت اليوم وعدًا فأنجزي ولا تخلفـي لا خـير في مُخلـفِ الوعـدِ[1]

ومناسبة هذه القصيدة هي أن الحارث بن خالد بينما كان واقفًا على جمرة العقبة إذْ رأى "أم بكر" وهي ترمي الجمرة، فرأى أحسن الناس وجهًا، وكان في خَدِّها خال ظاهر فسأل عنها ، فأخبر باسمها حتى عرف رحلها، ثم أرسل إليها يسألُها أنْ تأذن له في الحديث، فأذنت له، فكان يأتيها يتحدثُ إليها حتى انقضتْ أيام الحج، فأرادت الخروج إلى بلدها فقال فيها : "ألا قل لذات الخال... القصيدة"[2].

ومن خلال هذا الخبر الذي سقناه في سياق الأبيات، ندرك أن العلاقة بين الحارث وأم بكر كانت علاقة خاطفة لا يتعدى عمرها الأيام المعدودات "أيام الحج"، ومع هذا فقد استطاعتْ "أم بكر"– بفتنتها وخالها الجميل– أن تفتح منافذ الشاعرية عند الحارث، حتى وقع في شباك حبها صيدًا سهلاً، فصدح كالبلبل إليها برسالة مزجت بين الغزل الرقيق في محاسنها، وبين الاستعطاف والتودد، والترجي في تذكر أيام القرب بينهما، إذا هي بانت وعزمتْ –لا محالة– على الرحيل، كما تلاحظ أيضًا أن "أم بكر" هذه كانت كالمهرة المعلمة، وكالفرس المسومة؛ لأنها استطاعتْ أن تُصبح في جمع الحجيج واضحة ظاهرة، مطهمة بارزة، مميزة كالقمر بين النجوم – وهذا هو سر تعلق الحارث بها– وعلامة ذلك التميز ، خالها الجميل، الذي يتوسط خدها الأسيل، ويجعلها بين النساء كالظبي الغرير، ثم لها علامات أخرى بمجرى وشاحها، وهو ذلك النسيج العريض المنسوج من الأديم، وقد رُصِّع

(١) شعر الحارث صـ٥٣.
(٢) شعر الحارث صـ٥٢، ٥٣ في الهامش .

بالجواهر[1]، وشدته "أم بكر" – بخبرة ودلال– بين عاتقيها وكشحيها .

هذا عن موضع وشاحها، وأما عن جيدها الأتلد، فهو موشى بلؤلؤة فريدة في موضع عقدها تزينه، أو يزينها الجيد، لنضارته وجماله، وإشراقه وصقله، كما تدلنا الأبيات– من خلال لغتها الرقيقة– على مدى تلهف الحارث عليها، وجَعْل المدة القصيرة من اللقاء الحبيب بمثابة الرباط المتين الجدير بالرعاية والاهتمام بها، وكأني بالشاعر وقد تهالك على وصلها، ودوام عهدها، فبذل كل ما في وسعه من وداد، وأعطى كل ما يملك من حب وإخلاص؛ أملاً في تحقيق رجائه، وتلبية ندائه، وليتها تفعل وقد وعدتْ بهذا، فلا خير في مخلف وعده البتة.

وقل قد وعدتِ اليوم وعدًا فأنجزي ولا تخلفي لا خير في مخلف الوعد

ويطلب الحارث – على استحياء – أن تجود أم بكر منها عليه بنائل، شأن كل محب يشتاق إلى من يحب، بيد أنه لا يفَصِّلُ في ذلك، أو يوضح، أو يلح إلحاح أصحاب الغزل المكشوف من أمثال "امرئ القيس" أو "الأعشى" أو من أبناء زمانه، وصنو عصره "عمر بن أبي ربيعة"، ولكنه يزف طلبه هذا مُغلفًا بالرجاء والدعاء لها أن يمتعها الله بالعافية، وأن يُقدم قبلها في اللحد، حتى لا يُفجَّع فيها، أو يحزن لفراقها وبعادها. يقول الحارث:

وجودي عليَّ اليوم منك بنائل ولا تبخلي قُدمتُ قبلك في اللحد
فمن ذا الذي يُبدي السرور إذا دنتْ بك الدارُ أو يُعْنى بنأيكم بعدِي
دنوكم مِنَّا رخاءٌ ننالُه ونأيكم والبُعد جَهْدٌ على جَهْدِ
كثير إذا تدنو اغتباطي بك النَّوى ووجدي إذا ما بنتُمُ ليس كالوجدِ
أقول ودمعي فوق خَدِّي مُخَضّلٌ له وشَلٌ قد بَلَّ تهتانه خَدِّي
لقد منح الله البخيلةَ وُدَّنَا وما مُنِحَتْ وُدِّي بدعوى ولا قَصْدِ[2]

(١) ينظر اللسان (وشح) .
(٢) شعر الحارث صـ٥٣، ٥٤ .

ولا ضير على الحارث في أن يطلب نائلاً من أم بكر، وأن يرجوها في ألا تبخل عليه، فهذا من طبيعة المحب إن تملكه الشوق أو أشرف على الهلاك، ولا يخرجه طلبه هذا من دائرة شعراء العفة، وعشاق الهوى العذري؛ فلقد طلب الحارث نائلاً مغلفًا مطلبه بالحياء والتخفي، لكن ابن الأحنف، وهو من رواد الغزل العذري في العصر العباسي، يطلب من "فَوْز" ما هو أعلى من هذا بكل مكاشفة وجرأة، يقول العباس:

خذوا لي منها جرعة في زجاجةٍ ألا إنها لو تعلمون طبيبي[1]

وعلى أية حال، فإن في الحب شيئًا من كل شيء، فأعلاه شيء من الروح، يحيا به المحب، كما فيه نفحة من العقل، ونبض من القلب، وحفز من الرغبة[2]، لكن الحارث في صدر أبياته التي معنا قد سارع مع طلبه هذا بتقديم أدلة الولاء، وقرائن الصفاء؛ حيث دعا لها بالبقاء، ودعا على نفسه بالفناء، بأن يُقدَّم في اللحد قبلها؛ لأن دنياه من غيرها مقفرة، وحياته مظلمة، فهي عنده مشكاة النور، وباعثة الهناءة والسرور، ومن ثَمَّ فهو حريص على بقائها وعدم نأيها؛ لأن في دنوها منه رخاء يناله، وفي نأيها عنه، وبعادها منه، جهد يتعبه، وعنت يرهقه.

وعلى الجملة فإن الأبيات تفيض رقة، وتصفو طهرًا، وتمتلئ نبلاً وولاء لأم بكر.

ولنتأمل جملها ومقاطعها "جودي علي- لا تبخلي – قُدِّمتُ قبلك في اللحد – فمن ذا الذي يُبدي السرور إذا دنت بك الدار – دنوكم مِنَّا رخاء نناله- ونأيكم والبعد جهد على جهد..." وما أجمل قوله بعد ذلك:

(١) ديوان العباس بن الأحنف صـ٢٤ ، طبعة دار صادر بيروت ١٣٩٨هـ- ١٩٨٧م .

(٢) ينظر: وقالوا في الحب ، خالد اللحام صـ١٠، المؤسسة اللبنانية العربية للتوزيع والطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م .

كثير إذا تدنو اغتباطي بك النوى ووجدي إذا ما بنتم ليس كالوجد[1]

أقول ودمعي فوق خدي مُخَضَّلٌ لـه وشَـلٌ قـد بَـلَّ هَتانـه خَـدِّي

لقـد مـنح الله البخيلـةَ وُدَّنـا وما مَنَحتْ ودي بدعوى ولا قَصْدِ[2]

ووجه جمالها أنَّ الشاعر قد جَدَ لها جَدْل الحصير؛ فتداخلتْ كلماتها، وتعاضدتْ معانيها، وأخذتْ كل لفظة فيها بحجزة الأخرى على سجية ومن غير تكلف، ولا تقعر؛ ولهذا جاءت محاسنها عفوية جميلة، ما قصدها الشاعر، ولا أعمل فكره في الوصول إليها. ولتتذوق هذا التداخل والدقة التعبيرية في قولة: "كثير إذا تدنو اغتباطي بك النوى"، والأصل في الكلام النثري العادي أن يقال: "اغتباطي – أي مسرتي وفرحتي – كثير إذا تدنو النوى بِك"، أما التعبير الشعري العالي، فقد أورده "الحارث"، وشيده على هذا النحو الدقيق ، مقدمًا الخبر "كثير" على المبتدأ "اغتباطي"؛ لأن الخبر هو المقصود من وراء التعبير ؛ لذا قدمه للأهمية، تعجيلاً للإخبار عن كثرة فرحته، واغتباطه إذا دنتْ النوى بأم بكر، وحان قربها، ثمَّ فصل الحارث بينه وبين المبتدأ بالشرط: "إذا تدنو" تلهفًا عليها، وتشوفًا لدنوها، وتشوقًا لوصالها وقربها منه، جاعلاً النوى المشؤومة في ختام الجملة، تنفيرًا منها، وإبعادًا لشبحها المزعج، وصورتها القبيحة، وفحيحها المخيف.

ومثلها في الدقة والروعة، الشطر الثاني من البيت : "ووجدي إذا ما بنتم ليس كالوجد"؛ فقد سمى تلهفه وقلقه وحزنه على بينها وبعدها وجدًا، ثم نفى أن يكون وجده عليها وجدًا مما قد تعارف عليه بين العشاق، وإنما هو وجد من نوع فريد يخص الحارث وحده، لا يوصف بكلمات، ولا تشمله عبارات، ولا تضمه جملة، أو تعبر عنه إشارة، مُحترزًا بجملة الشرط – إذا ما بنتم–؛ ليظل وجده الذي لا يُوصف مقيدًا ببعاد أم بكر عنه؛ إشعارًا بمكانتها،

(١) الاغتباط : الفرح والمسرة بالنعمة . اللسان (غبط) .
(٢) شعر الحارث صـ٥٤ .

وبيانًا بأهمية قربها، وفجاعة نأيها.

وهكذا تظل الجملة الشاعرة – مع وجازتها وكثافتها – أجمل مما قلناه عنها، وأقوى إيحاءً وإشعاعًا، وهذا مما تميز به الكلام العالي "الشعر"[١] وتفرد دون غيره... "ووجدي ليس كالوجد".

وينقلنا الحارث من مخاطبة "أم بكر"، وكشف ما أصابه بسبب بعادها، إلى وصف حالته، ورسم صورته البائسة التي امتدت به، وكأنه أراد أن يزف إلينا طرفًا من وجده الذي لا يوصف، فهو وجد ليس كالوجد، ولئن صَحَّ وصف جزئه، أو رسم جانب له، فهو على هذا النحو:

أقول ودمعي فوق خدي مخضلٌ لـه وشـل قـد بـل تهتانـه خـدِّي

لقـد مـنح الله البخيلـة ودنـا ومـا منحـت ودي بـدعوى ولا قصـد

والصورة في البيتين مصحوبة بحديث العاشق المختلط بنشيجه وشجنه، ونحيبه وبكائه، يرسمها الحارث بدموع عينيه، ويصبغها بتسكاب مقلتيه، وهي صورة شاحبة دامية، دامعة حزينة، تحكى بألوانها القاتمة ما يعتري العاشق إذا أَلَمَّ به اليأس، وأحاطته ظنون الهجر، وأوهام البعاد، ولا يملك إلا دموعه يسكبها، وعبراته يهرقها قطرات ندى؛ قربانًا للمعشوقة، وبرهانًا على صدقه وإخلاصه، وحسرات على حُبٍّ قد انقضى، وزمنٍ قد وَلَّى.

ولقد قصد الحارث من ورائها تصوير وجده، وتجلية حزنه على بعاد "أم بكر"؛ فجعل دمعه السَّحَاح فوق خده موارد ماء منهل، يتصبب ويتتابع بلا توقف، وكأنه سحابة تنهمر، أو ديمةٌ تنسكب وتهتن من غير توقفٍ. وهذا ما أراده في قوله عن دمعه: "له وشل قد بَلَّ تهتانه خدي"، وقوله عن محبوبته "أم بكر" في استسلام ويأس:

لقـد مـنح الله البخيلـة ودنـا ومـا مَنَحـت ودي بـدعوى ولا قصـد

في ترفقٍ وإخبار عن بخلها، مع مَنْح المولى – سبحانه– ودَّه لها، وهو

(١) يأتي الشعر في المرتبة الثالثة من مراتب الكلام العالي بعد القرآن والحديث النبوي .

أسلوب يُضفي عن المعنى جوًا من الصفاء والنقاء المغلفين بالود الممنوح من الوهاب – جل في علاه–.

وعلى الجملة، وتأسيسًا على ما سبق تحليله، فإنَّ حديث الحارث بن خالد عن "أم بكر" قد ضَمَّ كل معاني النبل والعفة والإخلاص والود، وَبَعُدَ فيه الشاعر عن كل مغمز حسي، يخدش حياء، أو يطفئ إشعاعًا، أو يخمد جذوة نور، وهو بهذا المنهج الذي سرى في معظم شعره يمكن أن نقول عن الشاعر بأنه قد استطاع أن يبعد عن ساحة الغزل الحسي، أو الهوى المادي الذي شاع وذاع في عصره؛ ليدلف إلى باحة الغزل العفيف، أو على الأقل يقف على بابها، ويترقب على قارعة طريقها، فمن وقف على الباب أو تعلق بمصراعيه، سهل عليه دخول الدار، أو كاد يدخل.

المعشوقة الخامسة: أم عمران

هي امرأة جميلة وضيئة كانت زوجة لعبد الله بن مطيع، وكان الحارث بن خالد عاشقًا لها، يشبب بها، فلما مات زوجها تزوجها الحارث(١).

يقول "الحارث" يتماوت في حب "أم عمران" :

بان الخليط الذي كنا به نشق ... بانوا وقلبك مجنون بهم عَلِقُ(٢)

تُنيلُ نزرًا قليلاً وهي مشفقة ... كما يخاف مسيس الحية الفَرِقُ

يا أم عمران ما زالتْ وما برحتْ ... بِيَ الصبابة حتى شفني الشفق(٣)

والأبيات سائرة على نهجٍ واحد ممن سبقتها في محبوباته الأُخر ، حيث يظل الحارث متهالكًا في عشق النساء الفاتنات، يعيش بعدهن بالذكريات، ويحيا بالأماني والآمال، وذلك بعد أن يرحلن عنه، فليس هناك لقاء مرتقبٌ،

(١) شعر الحارث صـ٨٩ .

(٢) الخليط: جيران الصفاء والود، والمراد به هنا الزوج والحبيبة لدلالة السياق عليه. ينظر: اللسان "خلط" .

(٣) شعر الحارث صـ٧٣.

ولا موعد منتظر، وقد تقطعتْ حبال الود بين الحبيبين، وانبترتْ أسباب الوصل بين الشاعر، وجيران الصفاء "الخليط"، وحَلَّ بدلاً عنها غراب البين الذي ينذر بالوحدة والجفوة والفرقة. وما كان الحارث ليفكر ساعةً أن يرحل الحبيب عنه، لأنه واثق في عشقه، متمسك بوداده وحبه؛ ولذلك لما أن بانوا، عَلِق في حبال الشوق رجاءُه وإشفاقه، وخفق فؤاده، وجن قلبه، وجرد من نفسه صديقًا يخاطبه، وهو يقصد خطاب نفسه: "بانوا وقلبك مجنون بهم عَلِق"، استئناسًا من الوحشة، وإبرازًا للحسرة التي حلتْ بقلبه المجنون بأحبته، المولِه المخبول بمن يهواهم:

قالوا: جُننتَ على رأسي فقلتُ لها الحـــبُّ أعظـــمُ ممـــا بالمجـــانين

الحبُّ ليس يفيقُ الدَّهرَ صاحبُه وإنمـا يُصْـرع المجنـون في الحـين(١)

ويرسم الحارث صورة متحركة دقيقة "لأم عمران" تكشف عن بخلها، وتمنعها، وحذرها، وخفرها قائلاً :

تُنيـل نَـزْرًا قلـيلاً وهـي مشـفقة كمـا يخـاف مسـيس الحيـة الفَـرِقُ

وهي صورة ترمي بظلالها إلى ما تتصف به " أم عمران" من صفات العفة والنبل، وتصوير مدى القلق والإشفاق والخوف إذا ما جادت لحبيبها بالنذر القليل، وحالها في ذلك التوتر والحذر حال الخائف الوجل، والمذعور الفَرِق الذي يتهيب مس الحية، ويتخوف لدغتها .

والوجه الجامع بينهما هو مطلق القلق والرهبة والحذر والإشفاق، ونُدرة الإقدام على مثل هذا الفعل من بذل " أم عمران" للحارث ، ومسيس الخائف الفرق "الحَيَّة". وواضح أن هذا النذر الذي تنيله المحبوبة للحارث، لا يشبع مشاعره المتقدة، ولا يروي قلبه المتصدع، ولا يبل صبابته المتعطشة؛ لذلك نراه يَصْرُخ – وكأنه في البيداء – بصوتٍ عالٍ، ونفس متقطعة، قائلاً لها، ومناديًا عليها:

---

(١) ديوان مجنون ليلى صـ٢١٧، الطبعة الثالثة ٢٠٠٩م دار صادر بيروت .

يا أم عمران ما زالت وما برحت بي الصبابةُ حتى شفَّني الشفق(١)

وأشعر – من هول النداء والمنادِي – أن الشاعر هلك، أو أشرف على الهلاك، فهو يستنجد بملاذه "أم عمران" في أن تخفف عنه – بوصلها وودها – آلام الصبابة، ولذغات الهوى والشوق، التي لا تزال به، تقض مضاجعه، وما برحتْ تُقلق ساعته، وتوقظ رقدته حتى شَفَّه الشَّفقُ: أي أنحله الفراق، وأهزله الفَرَقُ والخوف، فرثى لحاله من يراه، وبكى لمآله من ينظر إليه رحمة وشفقة، وكأنه – في حالته هذه – ابن الملوح عندما يخاطب ليلى، ويرثي لحالته مع من يراه من أصدقائه وأعدائه المشفقين على ما صار إليه في قوله :

وأنتِ التي ما من صديق ولا عِدَا يرى نِضْوَ ما أبقيتِ إلا رثى لِيا(٢)

فكلاهما برحتْ به الصبابة(٣)، وأذابه الشوق والهوى، وأضناه الضنى والبعاد، وأسقمه الوجد والسهاد، وأذبله الشفق وشدة الهُيَام(٤)، فالحارث شفه الشفق، وأرقته الصبابة على حد تعبيره السابق، وأما قيس بن الملوح فرثى لحالته العدو قبل الصديق؛ وذلك لذبوله ونحوله وشحوبه.

بَيْدَ أَنَّ رِقَّ الصبابة، و استعباد الهوى، وأسر العشق، شيء يستمرئه الحارث، ويتلذذ به، ويحيا فيه ، ويدعو الله مخلصًا ألا يعتق رقه من صبابة "أم عمران" فهذا لا يضره، ولكن ينفعه:

لا أعتق اللهُ رقيّ من صبابتكم ما ضرَّني أنني صَبٌّ بكم قَلِقُ(٥)

وواضح أن الحارث أراد أن يكشف لنا جانبًا مشرقًا جميلاً حسيًا، عن

---

(١) شعره صـ٧٣ .

(٢) ديوان مجنون ليلى صـ٢٢٩، طبعة ٢٠٠٩م، الثالثة، دار صادر.

(٣) يقول ابن منظور: الصبابة: الشوق، وقيل رقته وحرارته، وقيل رقة الهوى. اللسان (صبب).

(٤) وقد أفرد ابن حزم بابًا كبيرًا لهذه المفردات أسماه: (باب الضَّنى) ذكر فيه طرفًا ممن أضناهم الشوق، وأذابتهم الصبابة. ينظر: طوق الحمامة من صـ١٣٧ إلى صـ١٤٠.

(٥) شعره صـ٧٣.

سر تعلقه بـ"أم عمران"، وسببًا من أسباب سعادته بها، وتمسكه بحبال هواها، وذلك في مظهر من مظاهر جمالها المُسْبِي في قوله يخاطبها:

ضَحِكْتِ عن مرهف الأنياب ذي أشر لا قضـــم في ثنايـــاه ولا روق[1]

يتـــوق قلـــبي إلـــيكم كـــي يلاقـــيكم كما يتوق إلى منجاته الغَرِقُ[2]

وهي صورة بديعة لضحكتها المشرقة، وابتسامتها المضيئة التي تفتر عن أنياب لؤلؤية جميلة، وأسنان بيضاء كزهرة الأقحوان، براقة ذات أشر وحدة ورقة، فالأشر هو التحزير يكون في أطراف الأسنان، وهو من علامات جمالها، وقد أشرت المرأة أسنانها أي حززتها[3].

ولتمام جمال "أم عمران" احترز الحارث بن خالد بحسه العالي من أن يكون في فكيها أو في أسنانها عيب يعيبها، أو يتنقص من بهائها، أو يُظنّ أن يلتصق بها شيء من هذا كله: فقال ليتمم جمال الصورة : "لا قضم في ثناياه ولا رَوقُ"[4]، وكلاهما عيب في الأسنان يحد من خلابتها وضيائها، ويضر بجمال الوجه وإشراقه.

وما أجمل قول الحارث في ختام أبيات "أم عمران" وقد أودع فيه كل سمات الشوق العذري والحب الجارف:

يتوق قلبي إليكم كي يلاقيكم كمـــا يتـــوق إلى منجاتـــه الغـــرقُ

ولعمري! لا أجد في قاموس اللهفة والحاجة والتوق والغوث – بحسب

---

(١) في الشطر الثاني من البيت زحاف بالحذف في التفعيلة الأولى وهو (الطي) ، حيث حذف الرابع الساكن من التفعيلة فأصلها "مستفعلن" وصارت "مستعلن" والأبيات من بحر البسيط: "مستفعلن فاعلن...".

(٢) شعر الحارث صـ٧٤ .

(٣) اللسان (حزز).

(٤) القَضَمُ: انصداع في السِّن، وقيل تثلم، وتكسر في أطراف الأسنان. اللسان: (قضم). وأما الرَوَقُ: فهو طول وانثناء في الأسنان، وإشراف العليا على السُّفلى، وهذا كله عيب فيها. اللسان: (روق) بتصرف .

علمي– أدق وأدل على حال "الحارث" ولهفته من الغريق يتعلق بأهداب النجاة، ويتوق – وكله أمل – إلى من ينتشله من براثن الموج، وهوة الغرق، ومخالب المنية؛ فقد تحدد اللحظة مصيره، والبرهة حياته أو مماته. وبحس الشاعرية، وطبع الفصاحة، وبقلب العاشق الوله، استطاع الحارث – بدقة عالية – التعبير عن مكنون هواه، وتوق فؤاده إلى "أم عمران"، مستخدمًا في رسم صورة قلبه المنفطر أشرعة الخيال، وأجنحة التشبيه الذي جَسَّد الصورة المعنوية وهي "توق الحارث إلى محبوبته" ملبسًا إياها ثوب المحسوس المشاهد وهو : "طوق الغريق إلى منجاته"، مع إبراز حال المشبه، وبيان مقدار توقه إلى ما يصبو إليه ويرجوه مع من يحب!

وواضح من تتبع سيرة "الحارث بن خالد" مع "أم عمران" فرطُ الحب والشوق الذي بثه الشاعر لها، وإظهار مدى الهم والأسى عندما تحين ساعة بعادها عنه، أو رحيلها مع آلها إلى أماكن نائية وفلوات مترامية، تاركة شاعرها يسكب العبرات ويذرف الدمعات على ديارها، ذاكرًا كل موضع قطنت فيه وأقامت به، باسْمه ورسْمه، قائلاً في حسرة تقطع الأنفاس:

أقوى مِنَ آل ظليمة الحزم فالغمرتان فأوحَشَ الخَطْمُ[1]

فجنوب أثبرة فَملحَدُها فالسدرتان فما حوى دَسْمُ

وبما أرى شخصًا به حَسَنًا في القوم إذْ حيتكُمُ نُعْمُ

إذْ ودُّها صافٍ ورؤيتها أمنيةٌ وكلاهما غُنْمُ[2]

وكلها أماكن لها في نفس الحارث مكانة وأثر وذكريات رغدةٌ من عهد بعيد، إذْ ودُّ أم عمران صاف عند الحارث بن خالد، ورؤيتها له – أو لكل من

(١) ظليمة: هي: "أم عمران" زوجة عبد الله بن مطيع، كان الحارث ينسب بها، فلما مات زوجها تزوجها. شعره صـ٨٩ هامش(١).

(٢) شعر الحارث صـ٨٩، ٩٠، وفي ذات المعنى، وذكر أماكن المحبوبة. ينظر صـ١٠٤، ١٠٥ من شعره .

يتوق إلى وجهها الأنور، وجمالها الأكمل – أمنية غالية ، وكلاهما: أي وصل ودادها، ورؤية جمالها غُنْم يغنمه كل من يراها، أو يظفر بوصلها، لا سيما وهي تمتلك من سمات الحسن وأمارات الجمال الحسي والمعنوي ما يجعلها مرمى للعيون، ومنهلا للعشاق، ومغنمًا لمن تتعشقه، أو تقع في حبال هواه(١).

وليس "أم عمران" وحدها هي المرأة التي سلبت عقل الحارث، وأسرتْ لبه، وتملكت هواه، ولكنه – عبر سنين عمره الممتد– مفتون بجمع من الحسناوات – إضافة إلى ما سبق الحديث عنهن – فقد فتن بـ"حبابة"(٢) وتغنى في حبها، فقال:

قد سَلَّ جسمي وقد أودى به سقم ... من أَجْل حيّ جلوا عن بلدة الحرمِ
يحن قلبي إليها حين أذكرها ... وما تذكرتُ شوقًا آب من أممِ
إلاَّ حنينًا إليها إنَّها رشأٌ ... كالشمس رؤدٌ ثقالٌ سهلة الشِّيمِ(٣)
فَضَّلها الله رب الناس إذ خلقت ... على النساء من أهل الحزم والكرمِ(٤)

وهام كذلك في "عَثْمة" فقال يصف حبه ووجده:

تغلغل حبُّ عَثمة في فؤادي ... فبادِية مع الخافي يسيرُ
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ... ولا حُزنٌ ولم يَبْلغْ سرورُ(٥)

فكلتاهما حبيبة إلى نفسه يتعشقها "فحبابة" سَلَّ هواها وحبه لها جسمه،

---

(١) ينظر شعره صـ٩٠، ٩١، ٩٢ الأبيات من (٥) إلى (٩) .

(٢) حبابة: جارية ليزيد بن عبد الملك وكان اسمها "العالية" ، اشتراها بأربعة آلاف دينار، فلما أراد الخروج بها قال الحارث هذه الأبيات. ينظر شعره صـ٩٨.

(٣) الرشأ: الظبي إذا قَوِيَ وتحرك ومشى مع أمه. اللسان: (رشأ).
والرؤد: المرأة الشابة الحسناء الحسنة الشباب. اللسان: (رأد).
والثقال : ضخمة العجيزة ذات كفل ومآكم. اللسان (ثقل).

(٤) شعره صـ٩٨، ٩٩ والبيت الأخير قد دخل تفعيلته الأولى (الطي) وهو حذف الرابع الساكن، وبه صارت مستفعلن – مستعلن "البسيط".

(٥) شعر الحارث صـ١١٩، ١٢٠ .

وأنحل شخصه، وبرى عصبه وعظمه؛ لأنها رشأ غرير، وظبية عبهرة، وشمس حسناء، وشابة هيفاء، موفورة الكفل، مشرقة الملامح.

وأما "عَثْمة" فقد تغلغل حبُّها في فؤاده، والتأم قلبه عليه، فظاهره وباديه قليل، وخافيه ومضمره كثير عميم.

شـقت القلـب ثم ذَرَرْتُ فيـه هـواك فَلِـيم فالتـأم الفطـور(١)

وأما عن "سكينة بنت الحسين" فقد وصفها الحارث وسط جمع من النساء وهي بينهن تتقدمهن في الطواف، حيث استلمن الركن، يقعدن في التطواف آونه، ويطفن أحيانًا على فتر وإعياء، حتى انتهين منه، وقد جهدتْ أحشاؤهن، وانبهرتْ أنفاسُهنَّ. يقول:

وإفاضـة الركبـان خلفهـم مثـل الغمـام أرذَّ بـالقطرِ(٢)
حـتى اسـتلمن الـركن في أُنُـفٍ مـن لـيلهن يطـأن في الأُزْرِ
يَقْعـدنَ في التطـواف آونـةً وَيَطُفْـنَ أحيانًـا علـى فَـتْرِ
فَفَـزِعْنَ مـن سـبْع وقـد جُهـدَتْ أحْشَـاؤهُنَّ موائِـلَ الخُمْـرِ(٣)

"والحارث" في كل هذا ، ومع كل هذا، يبث أشواقه ومواجده، ويطلق للشعر عنانه وخيوله، وللبيان خياله وصوره، لكي يعبر عن مكنون هواه، وفيض مشاعره تجاه من يهوى، ونحو من يعشق... وهكذا كان "الحارث بن خالد المخزومي"، وهو بكل هذا عاش، واشتهر بين أصدقائه وشعراء عصره.

(١) البيت في اللسان منسوب إلى عبيد الله بن مسعود، وهو مما أنشده ثعلب . ينظر: اللسان (فطر).
(٢) أرذَّ: أي أمطر الرَّذاذ وهو المطر الخفيف: اللسان: (رذذ).
(٣) شعر الحارث صـ٦٥، ٦٦، وموائل الخمر أي: مائلات الخمار من جهد الطواف، والخمار ما تغطي به المرأة رأسها.

الفصل الرابع

الحارث بن خالد المخزومي في التحسر على ذكريات الشباب

إنَّ التحسر على الشباب المنقضى قضية شغلت كل النفوس البشرية منذ عهد بعيد "شاعر وغير شاعر"؛ إذْ يتجاوز المرءُ نضارة الشباب وحيويته، وأنسه ولهوه، إلى أفول نجمه، وخريف عمره، وغروب شمسه، وهي مرحلة يذوي فيها عوده، ويتسعسع عمره، وتضمحل عافيته، ويطير من مفرقه غراب سواده، ويحل محله بومة هرمه وبياض شيبه، ليخط بقلمه الزاهي هامته، ويصبغ بصبغته فوديه، ولله دَرُّ من صور هذا التغيير في تعبير رائع فقال :

والشيب ينهض في السواد كأنه ... ليل يصيح بجانبيه نهار(١)

أو تحسر على ذهابه فقال:

ذهب الشباب فما له من عودة ... وأتى المشيب فأين منه المهرب(٢)

أو تمنى عودته فقال:

فيا ليت الشباب يعود يومًا ... فأخبره بما فعل المشيب(٣)

وساعتها يتذكر الإنسان صباه، ومراتع هواه، وربيع عمره، وأيام أنسه، وأوقات حظه، وليس له إلا التذكر والتحسر، واجترار الماضي، وآلام الحاضر، لا سيما إذا كان شاعرًا له قلب مرهف، ونفس رقيقة، متعلقة بذكريات رغيدة، وعيشة سعيدة، مع فاتنات ناضرات، وزهرات يانعات، له في قلبهن مكانة، ولهن في فؤاده مثلها، أو أعظم منها، وهكذا كان الحارث المخزومي: يقول ينعي شبابه الراحل:

---

(١) البيت للفرزدق : ينظر ديوانه صـ١١٤ ، سلسلة شعراء العرب، المركز الثقافي اللبناني – بيروت، الطبعة الأولى .

(٢) ديوان الإمام علي بن أبي طالب صـ٦١، جمع وتعليق د/ أحمد شتيوي، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ–٢٠٠٣م، دار الغد الجديد بالمنصورة .

(٣) ديوان أبي العتاهية صـ٤٦، دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٦هـ– ١٩٨٦م .

رحـل الشـباب وليتـه لم يرحـل ... وغـــدا لطيـــة جاهـــل مُتجمـــلِ
وَلِيَّ بـــلا ذمٍ وغـــادر بعـــده ... شـــيبًا أقـــام مكانـــه في المنـــزل
ليت الشبابَ ثوى لدينا حقبةً ... قبـــل المشـــيب وليتـــه لم يَعْجَـــلِ
فقضـــيب مـــن لذَّاتـــه ونعيمـــه ... كالعهـــد إذْ هـــو في الزمـــان الأول
يرعـــى الصـــبا أوطانـــه ويريحـــه ... في السَّـهل مـن دمـثٍ أنيـقٍ مُقْبِـلِ
كزماننـــا وزمانـــه فيمـــا مضـــى ... إذْ نحن في ظل الشباب المخْضِلِ[1]

وهي صورة حزينة يجترها الناس جميعهم، ويعبرون عنها في أحوالهم المختلفة، وأساليبهم المتباينة التي يجمعها جامع التحسر والحزن على عمر قد انقضى، وزمان قد ولَّى، وشباب قد مضى، بيد أن الشعراء يطيلون القول في ذلك، ويبسطون للخيال بساطة، ويرخون عنانه نحو هذا الأمر، "فالحارث بن خالد" يبكي شبابًا راحلاً "رحل الشباب" ، ويتمنى أن لو ظَلَّ مؤنسًا للقلب، موقدًا للحب والروح... "وليته لم يرحل"؛ لكنه غدا راحلاً مودعًا، لا يأسى على متعلق به، ولا يرجو وصال مُتمسك بتلابيبه، "ولىَّ بلا ذم" – لأنه مرغوب في بقائه–، وغادر تاركًا من بعده شيبًا بغيضًا إلى النفس، تحاول ستره فلا تستطيع، ثقيلاً على القلب، كئيبًا في الفؤاد، جاثمًا كالليل الثقيل في مكان لا يبرحه.

ونلاحظ أن الشاعر كان حريصًا على إقامة الزمن الراحل "الشباب" حقبة معه، قبل شيب هجم عليه، ومشيب أقام معه، ولكن هيهات هيهات، فلقد ولى الزمن، وانقضى العمر، وأتى المشيب، وكرر الحارث "ليت " في بيت واحد على الشباب مرتين؛ تجسيدًا لحسرته عليه، وتدليلاً على حزنه وفراقه، واصطباغ نفسه والآخرين بلون الغيم المحلق في سمائه التي أمطرت حرقةً، وأسبلت على الشباب دمعةً.

(١) شعر الحارث بن خالد صـ٨٦ .

ليت الشبابَ ثوى لدينا حقبةً قبل المشيب وليته لم يَعْجَلِ(١)

ووجه الحسرة المتكررة هنا عند الحارث، وسبب هذه الزفرة؛ أنه أراد أن يقطف من لذات الشباب ونعيمه أكثر الزهر، وأن يبقى في زمانه الأول أطول الوقت الذي يعب منه وينهل؛ حيث الصبا وأيام المرح واللهو في السهول والوديان، في زمن مضى بفتوة مخضلة، وعيش ناعم، ومقام طيب.

فقضيب من لذَّاته ونعيمه كالعهد إذْ هو في الزمان الأول(٢)

"الأبيات..."، وها هو يفخر – كغيره من الشعراء – بأيام صباه، ويتذكر مراتع لهوه، ومرابع صفوه، في زمن جميل، وفي أحضان منازل تمتلئ جنباتها أُنسًا وحيوية وإشراقة وسعادة دائمة. يقول:

من كان يسأل عنا أين منزلنا فالأقحوانة مِنَّا منزلٌ قمنُ
إذ نلبسُ العيش صفوًا ما يكدره طعنُ الوشاة، ولا ينبو بنا الزمنُ
ليت الهوى لم يقربني إليك ولم أعرفكِ إذْ كان حظِّي منكم الحَزَنُ(٣)

فهو يتمنى أن لو دامت هذه الأيام الرغدة، في تلك الأماكن المعجبة، بمكة المكرمة، أو قريب منها بـ"الأقحوانة"، حيث العيش صاف، غير مكدر بطعن واشٍ، أو بإدبار زمان، أو غدر حدثان، كما يتمنى أيضًا لو لم يعرف الوصل والهوى والغرام إليه طريقًا، فلم يقربه إلى حبيبته "عائشة بنت طلحة" التي ما جَرَّ هواها وحبها وعشقها عليه إلاَّ الهم والبعاد، والشقاء والحزن.

ويبدو من واقع شعر "الحارث" أن الشاعر قد تقدم الزمن به، فتسعسع

---

(١) شعره صـ٨٦ .

(٢) شعره صـ٨٦ .

(٣) شعر الحارث بن خالد صـ١٠٣، ١٠٤، والأبيات يخاطب بها "عائشة بنت طلحة" وقد أبلغه رجل عائد من المدينة إلى مكة أن عائشة سألتْ عنه، فلما علم بذلك تاقت نفسه إليها، وأعطى للرجل راحلة وحلة ونفقة لطريقه، وقال له: عد إليها بهذه الرقعة، وفيها هذه الأبيات. ينظر: شعر الحارث صـ٣٤.

عمره، وأصبح في خريف زمنه، فأخذ يتذكر الموت، ويأسف على عمرٍ ولىَّ، وزمن فات، كأنه طيف وسنان، وكأن الشاعر فيه لم يفعل شيئًا ذا بال طوال حياته، ولم يعب من زينة الحياة الدنيا، إذا هو مات، وصار بين طيات التراب. يقول:

كأني إذا متُّ لم أضطرب تَزين المخيلةُ أعطا فيهْ
ولم أسلب البيض أردانها ولم يكن اللهو من باليهْ[1]

وهكذا ظهر الحارث بن خالد – كبقية الشعراء – متحسرًا على زهرة شبابه، وانقضاء عمره، ومفارقته نضرة الصبا وموارد الصفاء.

ولقد عبَّر عن هذا كله في شعر رقيق يحمل نفسًا شاعرة، تحزن على ما فات من عمر، وتأسي على ما انقضى من شباب، وتجتر زكريات الماضي، لتجعل منها وقودًا، يعينه على حاضره المشؤوم وواقعه المملول .

(١) شعره صـ١١١، ١١٢ .

الفصل الخامس

الحارث بن خالد المخزومي في الأخوة والصداقة

للأخوة والصداقة مكانة عظيمة، ومنزلة سامقة عند الناس عامة، وعند العرب خاصة، إذْ يرى العربي أخاه بعين الإكبار، ففيه المنعة، والقوة، والزهو على الأعداء، والنصر عليهم، وهو السلاح والعضد، والدرع والترس، وغير هذا مما أفاض فيه ديوان الشعر على نحو قول القائل:

أخاك أخاك إنّ من لا أخًا له كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح
وإنّ ابن عم المرء فاعلم جناحه وهل ينهض البازي بغير جناح؟[1]

"والحارث بن خالد" واحد من هؤلاء الذين خاطبوا الأخوة، وترجوا أواصر الدم، ورحم المودة والقربى، فقال يخاطب أخاه في ودٍ ودفءٍ وتوددٍ حان:

لعمري لئن لم يجمع الله بيننا بما شاء لا نزداد إلا تنائيا
أعد الليالي إذ نأيت ولم أكن بما زل من عيش أعدُّ الليالي
أخاف انقضاء العيش دون لقائكم بأرض ولو منيتُ نفسي الأمانيا
إذا ما بكى ذو الشجو أصغيتُ نحوه وآسيته بالشجو ما دام باكيا[2]

والأبيات فيها دفء الأخوة، وعتاب الحارث على شقيقه لبعاده عنه جلي واضح، وقد صدرها بالقسم الجازم "لعمري"، إن لم يكن مشيئة من الله بالتداني والقرب بينهما لم يزدادا إلا بعادًا وتنائيًا... وهو بين خوفه من العباد، ورجائه

---

(١) البيتان لـ" قيس بن عاصم بن سنان التميمي" في ديوان الحماسة، لأبي عبادة البحتري صـ٢٨٧، وضع حواشيه، محمود ديّوب، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م، "وقيس بن سنان" شاعر فارس شجاع حليم أدرك الإسلام والجاهلية، وأتى النبي -ﷺ- وروى عنه ومات سنة ٢٠هـ. ينظر ترجمته في: معجم الشعراء للمرزباني صـ١٩٩، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، تقديم د/ محمود علي مكي، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة.

(٢) شعر الحارث صـ١٠٨.

في التداني قلق حائر، مضطرب المشاعر والأحاسيس، يعد الليالي ليلة بعد ليلةٍ، يعتصره النأي، ويفنيه الأسى والسهاد، ولم يكن من قبل يحسب للزمن حسابًا؛ إذ هو – مع قرب أخيه منه، وأنسه به – في رغد من العيش...، لكن "الحارث" مع هذا الهجر والبعاد، مسهد العين، وجل المشاعر، يخاف أن ينقطع العيش به، والبعاد بينه وبين أخيه قائم، والنأي ممتد، وشبح الفراق بينهما مخيم، ورجاؤه في القرب – مع هذا البعاد – خائب، ولو مَنَّى نفسه الأماني، ورجا التداني، ونشد الوداد والأنس:

أخاف انقطاع العيش دون لقائكم بأرض ولو منيت نفسي الأمانيا(١)

لكنه مع هذا يتسلى بنظيره في البعاد، وشبيهه في السهاد؛ فالمصائب للمصابين بها جامعة، والمحن للواقعة عليهم مقرِبة، والشجى يبعث الشجى؛ لذا نرى "الحارث" يُصغي لمن يشاكهه في محنته، وينصت لمن يحاكيه في بليته، يتحدب عليه، ويبادله شجوًا بشجوٍ، وأسىً بأسىً، وبكاءً ببكاءٍ:

إذا ما بكى ذو الشجو أصغيتُ نحوه وآسيته بالشجو ما دام باكيًا(٢)

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه العواطف النبيلة التي يتمتع بها الحارث نحو الآخرين، لا تقتصر على إخوة الدم، وآصرة القرابة، لكنها تتعدى هذا الإطار الضيق، لتنطلق إلى مجال أرحب، وفناء أوسع، إلى الصديق والرفيق، والصاحب الذي يحاكي عنده الأخ الشقيق، فله عنده حق وواجب يقول:

عليَّ لإخواني رقيب من الصفا تبيد الليالي وهو ليس يبيد
يذكرنيهم في مغيب ومشهد فسيان عندي غُيَّبٌ وشهود
وإني لأستحي أخي أن أبرَّه قريبًا وأجفو والمزار بعيد(٣)

وتعبير الحارث عن ذلك رائع ودقيق، وهو في ذلك يحمل المعنى

(١) شعر الحارث صـ١٠٨.
(٢) شعره صـ١٠٨.
(٣) شعره صـ٥٢ .

الرائق، الذي أراد الشاعر أن ينقله إلينا بظلاله وأفيائه: "علي لإخواني رقيب من الصفا"، مقدمًا الجار والمجرور في صدر الجملة "عليَّ"؛ لتجسد مدى الاهتمام والالتزام من الشاعر لإخوانه؛ مشخصًا هذا كله في صورة "رقيب" قائم لا يغفل، ولا يتهاون، جاعلاً هذا الرقيب القائم على ذلك "من الصفاء"، وهو من المعنويات التي أبرزها الشاعر في قالب محسوس مشاهد، تبيد الليالي، بينما هو راسخ، لا يبلى ولا يهلك.

ولقد رشح الحارث استعارته الجميلة هذه وقواها في باب المجاز، وأوغل بها في دروب الخيال، مبتعدًا عن الحقيقة؛ حيث جعل من الصفاء مُذَكِّرًا له في مغيب أصحابه ومشهدهم.

وما دام الصفاء رقيبًا وراعيًا، فهو – كذلك – مُذكِّر، وضمير حاضر، ولسان ناطق بكل ألوان الوفاء والود. وغياب أصحاب الشاعر عنه، وحضورهم بين يديه سواء لديه، وحاشا أن يكون الحارث –بخصاله النبيلة هذه– أسير أيادٍ، أو عبد عينٍ، يراقب في رياءٍ أصدقاءه في حضورهم، ما داموا ينظرون إليه، ويرقبونه بلحاظهم، فإذا ما غابوا عنه، سلقهم بلسانه، وأدماهم بمقاله، وقرضهم بهمزه، وقرصهم بلمزه، إنه لا يفعل كل هذا البتة، بل يستحي منه، ويعده من اللؤم، ومعوج السلوك، وما أجمل تعبيره الرائع عن هذا بقوله في إنسانية بالغة:

وإني لأســـتحي أخـــي أن أبـــره قريبًـــا وأجفـــو والمـــزار بعيـــد(١)

وقوله في ذات الغرض بعد قسم مبرم:

لا أخون الصديق في السِّر حتى يُنقـــلُ البحـــر بالغرابيـــل نقـــلا

أو تمـــرّ الجبـــال مَـــرَّ ســـحاب مُرْتَـــقٍ قـــد وعـــى مـــن المـــاء ثقـــلا(٢)

وشاعر هذه شيمته، وتلك خصاله، لا شك أن يكون مجلسه عامرًا

(١) شعره صـ٥٢ .

(٢) شعره صـ٨٢ .

بالأدب، بعيدًا من الخنا، نائيًا عن الفواحش، مقصورًا على ملح القول، وتذكر حاجات القلب، ولبانات الأشواق: يقول الحارث عن طبيعة مجالسه:

إذا اجتمعنا هجرنا كل فاحشة عند اللقاء وذاكم مجلسٌ لَبِنُ(١)

وما سقنا من أشعار، تقيم دليلاً على حسن صحبة "الحارث" لأصحابه وأصدقائه في حالة الصفو والوداد، وأما في جانب العتاب واللوم، فنراه لا يقطع حبل وداد أصحابه أيضًا، ولا يجفوهم بقول، ولا يغلظ عليهم في عتاب، ولكنه يُسدد في كل هذا ويقارب، ولا يقطع بينه وبينهم شعرة معاوية أبدًا؛ إذْ هو بينهم معروف بخصال حميدة، من العفة والوفاء، والبر والتقى. وفضلاً عن ذلك، فإن له في قلوب الخلفاء والولاة والقادة مكانة مرموقة، ولهم به صلة وثيقة. يقول الحارث يعاتب "عبد الملك بن مروان" "الخليفة الأموي" :

صحبتك إذْ عيني عليها غشاوة فلما انجلتْ قَطَّعْتُ نفسي ألومها

وما بي إن أقصيتني من ضراعة ولا افتقرتْ نفسي إلى من يضِيمُها

عطفتُ عليك النفس حتى كأنما بكفيك بؤسي أو عليك نعيمها(٢)

والأبيات توضح – في جلاء– مكانة الحارث وعزة نفسه، وأصل طبعه الذي أبى عليه أن يقبل جفوة وقعتْ له من "عبد الملك بن مروان"، حتى ولو كانت من الخليفة نفسه؛ لذا كانت منه هذه الأبيات التي تدلل على إخلاصه للخليفة في صحبته، وظنه أنه انخدع – فَقَطَّعَ نفسه يلومها– بسبب جفوة شَعُرَ بها الحارث من عبد الملك في سنة خمس وسبعين هجرية، فلما انصرف رحل معه الحارث إلى دمشق، فظهرت له جفوة منه، وتلكأ عبد الملك في مقابلته، فانصرف الحارث عنه، وقال هذه الأبيات يعاتبه، وبلغتْ عبد الملك، فأرسل إليه مَنْ رده من طريقه، وحادثه عبد الملك حتى أرضاه، ثم قال له الخليفة:

---

(١) شعره صـ١٠٥، ومجلس لبن: أي تُقضي فيه اللبانة وهي حاجة القلب، والبيت في اللسان تحت مادة (لبن).

(٢) شعر الحارث صـ١٠١، ١٠٢.

اختر لنفسك يا حارث، إن شئت أعطيتك مائة ألف درهم، أو قضيتُ دينك، أو وليتك مكة سنة، فرضي بولاية مكة فولاه إياها"[١].

وعلى أية حال فإن الأبيات تجسد وتوضح إخلاص الحارث لأصدقائه، وأدبه مع ولاة أمره مع عزة وإباء، وتعفف وترفع، وما أجمل قوله – في شموخ وثقة – : "وما بي إن أقصيتني من ضراعة"؛ تدليلاً على عزته، ورفع شعار كرامته، واستقلاله، وكونه سليل بني مخزوم، بيوت العزة والأبهة، وأصحاب المكانة والأرومة في قريش، فهو لا يضرع، ولا يخضع، حتى ولو أقصاه الخليفة، وأبعده عن بلاط سلطانه، وعز عيشته؛ لأن نفسه نبتت في العزة، وارتضعت من أفاويق الإباء؛ لذا لا تحتاج أو تفتقر إلى الآخر، فضلاً عمن يريد أن يذلها، أو يستذلها .

"ومع أن الحارث كان مرواني الهوى، وكانت بنو مخزوم زبيرية"[٢]، إلا أنه أبى الضيم، ورفض أن يكون هامشًا في صفحة نفس الخليفة، ولكنه – في ذكاء وحنكة ولباقة وأدب – يلين في أيدي إخوانه، وهذا شأن الكريم، وسلوك كل ذي نسب وأصل؛ ومن ثَمَّ فقد جعل ختام أبياته استرضاء للخليفة، وهمسًا رقيقًا يداعب الجانب الإنساني لديه، والحاسة النقدية والشعرية عنده، –كذلك– بيانًا لمكانة عبد الملك من نفسه قائلاً له :

عطفتُ عليك النفس حتى كأنما بكفيك بؤسي أو عليك نعيمها[٣]

فهو له محب، وبه متمسك، وبحبل مودته متعلق أبدًا، حتى يخيل لمن يرى سلوك الحارث هذا أن بؤسه ونعيمه، شقاءه ومتعته، كل هذا متعلق بكفيّ عبد الملك، لا يبرحه لغيره، وكأنه أراد بهذه الترضية أن يوثق علاقته بالخليفة، بأن يسل سخينة صدره، ويستجلب عليه رضاه، من باب قول القائل: "إذا عَزَّ

(١) الأغاني جـ٣/٣١٧ بتصرف ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م .
(٢) الأغاني جـ٣/ ٣١٧.
(٣) شعره صـ١٠٢.

أخوك فَهُنْ"[1]، فهو يعلم مكانته عند الخليفة، ومنزلته ومقامه؛ لذا حبس نفسه على احترامه، وعطفها على وده والأنس بلقائه.

وربما استأنس الحارث بن خالد ببعض أصحابه فأسمر معهم، وجرى بينهم مساجلات أدبية وشعرية، لا سيما إذا كان كلهم شعراء، لهم من البيان والفصاحة ماله، وهذا واضح في المساجلة التي وقعت – في وصف البرق– بين الحارث، وعمر بن أبي ربيعة، ورجل من بني مخزوم، وابن أخت الحارث، وأبي ربيعة المصطلقي، والذي بدأها بقوله في وصف البرق:

أرقت لبرقٍ آخر الليل لامع جرى من سناه ذو الربى فينابع

فقال الحارث:

أرقت له ليلَ التمام ودونه مهامِهُ موماةٍ وأرض بلاقِعُ

فقال المخزومي:

يُضيء عضاه الشوك حتى كأنما مصابيح أو فجر من الصبح ساطِعُ

فقال عمر بن أبي ربيعة:

أيا رب لا آلو المودة جاهدًا لأسماء فاصنع بي الذي أنت صانع

ثم قال: مالي وللبرق والشوك[2].

وهكذا كشف شعر "الحارث بن خالد" عن علاقته القوية بإخوته وأصحابه، ومواقفه وأخلاقه معهم، وأنسه بهم، وتحننه عليهم، وتمسكه الدائم بحبل وصالهم، وإبقاء ودهم، سواء أكانوا إخوة أشقاءَ، أم أصحابًا وخلانًا، لهم من نفسه مكانة، ومن مشاعره وأحاسيسه موقع ومنزلة.

---

(١) المثل قائله هذيل بن هبيرة أخو بني ثعلبة: ينظر في: الفاخر لأبي طالب المفضل بن سلمة بن عاصم صـ٦٤، تحقيق: عبد الحليم الطحاوي، محمد علي النجار، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م .

(٢) شعر الحارث صـ٦٩، ٧٠.

الفصل السادس

الحارث بن خالد المخزومي في الهجاء والعتاب

وفي هذا الباب أعني "المهاجاة" ليس للحارث فيه كبير نصيب، أو وافر مقال؛ إذْ هو في خصاله وطبعه وشمائله بعيد كل البعد عن هذا الغرض "الهجاء" الذي يتطلب أوصافًا وسمات في ذات الشاعر، وأمورًا مركبة في شخصيته تجعله يميل إليه، وينتشي لقرضه، وتسليط لسانه على الآخرين من أمثال: عبد الله بن الزبعري، والحطيئة، ودعبل بن علي، وابن الرومي وغيرهم.

إلاَّ أنه باستقراء شعر الحارث حول هذا الموضوع وجدناه قد شارك فيه، ولكن في نطاق ضيق، ودائرة محدودة، لا يكشف فيه سترًا، ولا يهتك شرفًا، ولا يقول هجرًا، بل هجاؤه لا يعدو أن يكون خدوشًا سطحية، لا تفحش ولا تؤلم، إلا أنها تستطيع أن تقيم دليلاً على استكمال دائرة الموضوعات الشعرية التي ضرب الشاعر بسهمه في أكثرها، وإن كان هذا لا يخرج الحارث في حقيقة الأمر عن زمرة شعراء الغزل الأموي الذي به عرف، وفي سمائه لمع بين أقرانه، واشتهر بين شعراء عصره، وغلب على شعره حتى استوعب أكثره.

يقول الحارث يهجو بني أسيد:

فضحتم قريشًا بالفرار وأنتم قمُدُّون سودان عظام المناكب[1]

فأما القتال لا قتال لديكم ولكن سيرًا في عراض المواكب[2]

فهو يوجه هجوه ولومه إلى بني أسيد بن أبي العيص بن أمية، الذين لاذوا بالفرار، وركنوا إلى السلامة، فدخلوا بذلك في عداد الجبناء الذين لا يحسنون الدفاع عن أنفسهم، ولا يثبتون في مواجهة الأعداء، ولكنهم يجيدون المشي مع ركاب الإبل، والسير في موكب الجماعة من الناس، في فجاج

(١) القُمُدُّ: بضم القاف والميم وتشديد الدال: القوي الشديد، وقيل الضخم الطويل العنق. ينظر: اللسان (قَمَدَ).

(٢) شعر الحارث صـ٤٤، ٤٥.

الأرض ونواحيها، للزينة واللهو بعيدًا عن أهوال القتال، ومواقف الرجال.

وينتقل "الحارث" من هجو بني أسيد جملة، إلى هجو أفراد قبيلتها، والبارزين فيها، فقال يهجو "خالد بن أُسيد":

هلا صبرتم بني السوداء أنفسكم حتى تموتوا كما ماتت بنو أسد

حامت بنو أسد عن مجد أولها وأنتم كنعام القاعة الشُّرُدِ(١)

فهو يحضهم بـ"هلا"، ويود لهم أن يصبروا في جلاد عدوهم، وقتالهم خصومهم في استماتةٍ وبسالةٍ، حتى يموتوا دون عرضهم وأموالهم، كما ماتت بنو أسدٍ، واستبسلوا في الدفاع عن أنفسهم ضد ملوكهم الذين قهروهم وأذلوهم، ولكن بني أسد جالدت، وصابرت حتى انتصرتْ على من قهرهم ، وأذاقهم كؤوس الموت والفناء:

حامت بنو أسد عن مجد أولها وأنتم كنعام القاعة الشُّرُدِ

ويظهر وجع الهجاء وقسوته من تلك المفارقة التي أظهرت خيبة أمل المهجوين الذين لم يفعلوا كما فعلت بنو أسد في دفاعهم عن أوطانهم، وإنما صاروا كنعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر، ما إن تسمع هبة أو حذفة، حتى تشرد مذعورة في كل مكان دون جدوى ولا هدى.

ولا شك في أن تشبيههم في جبنهم وخورهم وفزعهم وشرودهم بنعام القاعة الشُّرد، فيه إهانة لهم، وتوبيخ ومذلة، لما صاروا إليه من هوان في أنفسهم، وهون في عيون خصومهم، الذين لم يعبأوا بهم، أو يكترثوا بعددهم؛ لأنهم – والحالة هذه – ليسوا على شيء من قوة، أو على قدر من رهبة في عيون أعدائهم.

وإنما ضرب الحارث مثلهم كمثل النعام خاصة؛ لأن العرب تضرب به

(١) شعر الحارث صـ٤٤، ٤٥ .

المثل في الجبن والفزع، والشرود والحمق، فيقولون: "أحمق من نعامة[١]، وأجبن من نعامة"[٢] في تصوير خور وشرود وجبن من يتصف بهذا، إلى غير ذلك.

وواضح من سياق أشعار الحارث، أنه تتبع سلالة بني أُسيد كلها، فلقد ترك هجو خالد بن أسيد، ليشرع في هجاء ابن أخيه "عبد العزيز بن عبد الله بن أسيد" فقال:

فَـرَّ عبـد العزيـز لمـا رأى الأَ ... بطـال بالسَّـفح نـازلوا قَطريَّـا
عاهـد الله إنْ نجـا ملمنايـا ... ليعـودنَّ بعـدها حُرْمِيَّـا[٣]
يسـكن الخَـلَّ والصِّـفاح فَمَـرًّا ... ن وسـلعًا وتَـارةً نجـديا
حيـث لا يشـهد القتـال ولا يسـ ... ـمع يومًـا لكـرِّ خَيْـلٍ دَوِيَّـا[٤]

والأبيات تحكي موقفًا متخاذلاً من مواقف "عبد العزيز بن عبد الله بن أُسيد"، حين كان يحارب الأزارقة في مواجهة قائدهم الماهر "قطري بن الفجاءة" الكناني المازني التميمي، ولم يستطع "عبد العزيز" الصمود في مواجهة "قطري" فلاذ بالفرار، غير متحرف لقتال، أو متحيز إلى فئةٍ، وهذا من أشنع ما يُعيَّر به المرء؛ ولذا عُيِّر بذلك، ووصم بعارها، وعرف بشنارها، وسجلها عليه "الحارث بن خالد" في شعره، واضحة خالدة، جليةً أبد الدَّهر : "فر عبد العزيز...".

ونلمح في الأبيات سخرية لاذعة من فرار عبد العزيز من ملاقاة خصمه،

---

(١) مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد الميداني جـ١/٣٤٥، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا ، بيروت ٢٠١١م، ١٤٣٢هـ .

(٢) مجمع الأمثال جـ١/٢٨٨ .

(٣) ملمنا يا يريد: من المنايا، حذفتْ النون؛ لقرب مخرجها من اللام، فكانتا كالحرفين يلتقيان على لفظ، فيحذف أحدهما . شعره صـ١١٠ هامش (٢) وحُرمِّيا نسبة إلى الحرم. يقال : (حِرميّ وحُرميّ) بكسر الحاء وضمها.

(٤) شعر الحارث صـ١٠٩، ١١٠ .

حيث صوره الحارث مُعاهدًا الله – تعالى– إن نجا من براثن المنايا ليحتمِيَنَّ بِحمى الحرم، حيث هو آمن في جواره، لا يرهب عدوًا، أو متربصًا به البتة.

وكونه مُعاهدًا على ذلك يصوره خوارًا جبانًا، يتمنى أن يَفْلِتَ من الموتِ هذه المرة – ولو بشق النفس–، وبعدها عاهد الله ألا يعود لمثلها أبدًا.

والتعبير بالعهد يشير إلى عزمه الأكيد ألا يدخل في حرب مع خصومه ما دام يتنسم الحياة، وهذا التعبير من أقوى الأساليب التي تنال من المهجو، وتُظهره في صورة يتندر بها أعداؤه وخصومه.

ومبالغة في سخرية "الحارث من عبد العزيز"، جعله يبتعد عن كل مكان يظن فيه قتالاً يقع، أو معركة تدور؛ ومن ثَمَّ فهو لجبنه، وخوره، وخنعه، قد سكن "الخل والصفاح ومرَّان وسلعًا ونجدًا..."، وكلها أماكن متصلة بالحرمين الشريفين، حيث لا يشهد عبد العزيز فيها القتال؛ لأمنها وأمانها وحرمتها، ولا يسمع يومًا لكرخيل دويًّا.

وفي هذا كله تضخيم لخصلة الجبن الذي اتصف بها "عبد العزيز"؛ حيث سلط الحارث عليها التصوير الأدبي الذي من شأن عدسته تكبير الصغير، وتكثير القليل، مبالغة في الذم، ونكاية في المهجو، وسخرية من المقصود(١).

وعلى كلٍ فلقد كان "الحارث بن خالد" شاعرًا له نصيب من الهجاء، قال فيه، وأصاب منه نصيبًا، غير أنه لم يُوغل فيه إيغاله في الغزل ولم يعرف به، ولم يتصرف فيه كما تصرف في شعره الذي خاطب فيه الوجدان، وكشف عن مواقعه في النفس، وتفاعله مع الحياة.

ويبقى "الحارث المخزومي" معروفًا بشعر الغزل، موسومًا – كغيره من شعراء عصره– بأنه شاعر الرقة العاطفية، والهوى العفيف.

---

(١) وينظر في ذلك أيضًا أبياته الثلاثة التي وجهها إلى أبان بن عثمان بن عفان يهجوه فيها، بعد أن مال الناس إلى ولاية أبان عليهم في موسم الحج لنسبه فيهم، وشرف عثمان ، تاركين ولاية الحارث بن خالد. ينظر: شعره صـ٤٦، ٤٧.

الخاتمة وأهم نتائج البحث

الحمد لله رب العالمين، الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية – سبحانه – جعل لكل شيء بداية ونهاية، وتنزه عن ذلك وتعالى علوًا كبيرًا .

وبعد ،،،

فقد طوفنا – في رحلة ماتعة – في أفياء وبستان شعر الحارث بن خالد المخزومي، وتعرفنا من خلالها على خصائص شعره، ووجهته التي توجهها فيه، والموضوع الذي آثره، وفضله، وضرب فيه بسهم وافر، وأثبت فيه – من حيث صوره، وتعبيراته، وخيالاته، وكلماته – قدمًا راسخة، تتجلى عن طاقة شعرية متدفقة، وطبع عربي أصيل، وضعه مع شعراء احتلوا في عصره منزلة ومكانة ودرجة سامقة.

وقد أسفرت هذه الدراسة عن كثير من النتائج، أثبتُّ بعضًا منها في تضاعيف البحث مبسوطة من خلال الدراسة والموازنة، والبعض الآخر أذكرها مجملة في النقاط الآتية:

أولًا: الدراسة التي بين أيدينا هي إطلالة على شعر الحارث بن خالد، ومشكاة كاشفة لإبداع شاعر من وجوه قريش، لم يحظ بحقه من الدرس والبحث، إذا ما قيس بأبناء زمانه ومكانه ومنزلته.

ثانيًا: الدراسة هذه تعد استكمالًا لما بدأه الدكتور/ يحيى الجبوري الذي جمع شعر الحارث من بطون الكتب، وحققه من شتى المصادر، وهو جهد مشكور، وعمل جليل، وضع الشاعر وشعره على مائدة الدرس، وهيأه للتأمل والبحث؛ ومن ثم كان لا بد من دراسة شاملة، تسلط أشعتها على موضوعات الشاعر، وتبرز جمالياتها وخصائها وميزاتها التي تميز صاحبها عن غيره، حتى يكتمل الجانب الشعري والجانب الفني في الحكم على الشاعر، ووضعه في منزلته التي تليق به بحيثيات وأسباب موضوعية وفنية ونقدية، ربما لم تكن واضحة أو جلية أو مذكورة من قبل هذا. لذا؛ جاءت هذه الدراسة، وكان هذا البحث.

ثالثًا: أثبتت الدراسة – من خلال التحليل والاستقراء – أن الحارث جال خياله، وتعلقت صوره بجل الموضوعات الشعرية التي تضعه في مصاف النابهين من شعراء زمانه وأبناء جلدته، لكنه أفرد مساحة واسعة من شعره حول "الغزل" حتى عُرف به، واشتهر من خلاله بين أصحابه.

رابعًا: كشفت الدراسة – من خلال الموازنة بين الحارث وأقرانه – أن الشاعر يقف جنبًا إلى جنب مع شعراء اشتهروا بالغزل– وهو الموضوع الذي اشتهر به الحارث–، من أمثال عمر بن أبي ربيعة، والعرجي، وأبو دهبل، وغيرهم، وإن كان لم يأخذ من الشهرة ما أخذه ابن أبي ربيعة الذي تزعم الغزل الحضري في بلاد الحجاز.

خامسًا: أظهر البحث أن الحارث المخزومي، لم يقتصر – في غزله الرقيق – على امرأة بعينها، ولكنه قرأ الجمال في عيون حسناواته؛ ففاضت روحه شوقًا، ونفسه هيامًا، ولسانه غزلًا رقيقًا، ولفظًا أنيقًا. ولعله في هذا الأمر يضاهي ابنَ عمه ابنَ أبي ربيعة، أو يضاهيه ابنُ أبي ربيعة الذي اشتهر بنعمى ورملة والثريا ولبانه وكلثم وعائشة وفاطمة وهند وحميدة، وغيرهن كثيرات.

سادسًا: لوحظ من استعراض شعر الحارث أن الشاعر قد اتخذ من بعض قصائده طابعًا قصصيًا رائعًا، وهو بذلك يقترب من عمر بن أبي ربيعة، الذي اشتهر بهذا اللون في شعره، وأصبح على رأس رواده في العصر الأموي .

سابعًا: أوضحت الدراسة أن الحارث المخزومي له بديار أحبته، وأماكن معشوقاته صلة وثيقة وارتباط قوي، خاصة تلك التي تقع في أرض الحرم المكي، وحول المشاعر المقدسة هذه الأماكن الحبيبة إلى نفسه، والتي استطاع بمقدرته الشعرية أن يربط بينها وبين وجده وأحبته وعشقه وغزله برباط متين، حتى أصبحت ظاهرة عند الحارث يتفرد بها ويعرف .

ثامنًا: استطاعت الدراسة – بالبراهين والأدلة – أن تقيم علاقات ووشائج بين شعر الحارث المخزومي وشعر بني عذرة ، وأن تقدم أكثر من شاهد على

إلتقاء الحارث مع مذهبهم الشعري؛ من حيث التماوت، والتفاني في المحبوبة، وإظهار الوجد والخضوع، والكشف عن الصبابة، واللوعة والضني عند ابتعاد الحبيبة، إلى غير ذلك.

تاسعًا: حاول البحث إنصاف الحارث المخزومي – من غير تعصب له – بالنقد والتحليل في مجلس ابن أبي عتيق؛ عندما عقد هذا الناقد موازنة بينه وبين عمر بن أبي ربيعة في حديثهما عن الأطلال ومخاطبة الديار، مشيدًا بشعر عمر، ساخرًا ومتهكما من شعر الحارث .

عاشرًا: أسفرت الدراسة عن شعر زاهر، وعصر حافل، وشاعر امتلك ناصية البيان بلغة زاهية وعبارة جميلة، لا تعقيد فيها ولا التواء، لهذا كان الحارث صدى لعصره المشرق، وصورة تعكس إعجاز البيان العربي في أرقى عصوره، وأنصع أزمنته .

حادي عشر: أماطت الدراسة اللثام عن أحد شعراء بني مخزوم، ربما انطوت صفحته من ذاكرة الزمن، وكادت يد النسيان تمحي مجده، وتطمس إبداعه، لولا أن تداركه نعمة من ربه؛ جمعت شعره، ووفقتنا لدراسته. وعشراتٌ غيره على شاكلته أعلامٌ يفتقرون للدراسة، ويحتاجون للكشف عن إبداعاتهم الشعرية، وينشدون المخلصين من محبي هذا التراث المشرق، وسدنته وخدامه، وليتهم يفعلون !

الباحث

عَبْد اللَّه مَحْمُود أبو شِعيشَع عُمَر

فهرس المصادر والمراجع

١- الأعلام لخير الدين الزركلي – طبعة دار العلم للملايين – بيروت لبنان – الطبعة الثالثة عشرة – مايو ١٩٩٨م .
٢- الأغاني – لأبي الفرج الأصفهاني طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م.
٣- الأمالي– لأبي علي القالي البغدادي – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٦م.
٤- البداية والنهاية – للإمام ابن كثير – طبعة دار المعرفة – بيروت لبنان – الثانية ١٤١٧هـ – ١٩٩٧ م .
٥- تحفة العروس ونزهة النفوس – لعبد الله محمد بن أحمد التجاني – حققه وهذبه محمد إبراهيم الدسوقي – مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع .
٦- تذوق الشعر منهج وتطبيق د / كمال لاشين – الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م – شركة ناس للطباعة بعابدين .
٧- ثور الوحش بين النابغة وذي الرمة د / زكريا النوتي – الطبعة الأولى ٢٠٠٢م – إيتراك للنشر والتوزيع .
٨- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر البغدادي – إشراف إميل يعقوب – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – الأولى ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م. منشورات محمد على بيضون .
٩- ديوان أبي العتاهية – طبعة دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م .
١٠- ديوان الأعشى الكبير – ميمون بن قيس – صنعة محمد فوزي حمزة – مكتبة الآداب – الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ -٢٠١٢ م .
١١- ديوان الإمام على بن أبي طالب – جمع وتعليق د / أحمد شتيوي – الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ– ٢٠٠٣م – دار الغد الجديدة بالمنصورة.
١٢- ديوان امرئ القيس – طبعة دار صادر بيروت.

١٣- ديوان البحتري – عني بتحقيقه وشرحه – حسن كامل الصيرفي – الطبعة الثانية – دار المعارف ١٩٧٣ م .
١٤- ديوان بشار بن برد – شرحه ورتب قوافيه – مهدي محمد ناصر الدين – طبعة دار الكتب العلمية بيروت – لبنان الأولى ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣م.
١٥- ديوان جميل بثينة – طبعة دار صادر بيروت – الطبعة الثانية ٢٠٠٢م.
١٦- ديوان الحلاج – صنعه وأصلحه أبو طرف تامر بن مصطفى الشيبي – منشورات الجمل – الطبعة الأولى .
١٧- ديوان الحماسة – لأبي عبادة البحتري – وضع حواشيه – محمود ديوب – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – الأولى ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.
١٨- ديوان طرفة بن العبد – اعتنى به / عبد الرحمن المصطاوي – طبعة دار المعارف – بيروت لبنان – الطبعة الثالثة١٤٣٣هـ – ٢٠١٢ م.
١٩- ديوان العباس بن الأحنف – طبعة دار صادر بيروت – الطبعة الثانية – ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨م.
٢٠- ديوان عمر بن أبي ربيعة تحقيق عبد الرحمن المصطاوي طبعة دار المعرفة – بيروت لبنان – الطبعة الثانية ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢ م .
٢١- ديوان عمر بن أبي ربيعة – طبعة دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.
٢٢- ديوان عنترة بن شداد – طبعة دار صادر بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٤ هـ –١٩٨٤م.
٢٣- ديوان الفرزدق – سلسلة شعراء العرب – المركز الثقافي اللبناني – بيروت – الطبعة الأولى.

٢٤- ديوان كثير عزة – شرحه عدنان زكي درويش – طبعة دار صادر بيروت – الأولى ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٥م.
٢٥- ديوان مجنون ليلى – شرح عدنان زكي درويش – طبعة دار صادر بيروت – الثالثة ٢٠٠٩م.
٢٦- زهر الآداب وثمر الألباب – لأبي إسحاق القيرواني – فصله وضبطه وشرحه د/ زكي مبارك.
٢٧- شرح ديوان أبي تمام – ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا الحاوي – الشركة العالمية للكتاب– طبعة دار الكتاب اللبناني – بيروت – الأولى ١٩٨١.
٢٨- شرح ديوان الحماسة – لأبي تمام – تعليق غريد الشيخ – وضع فهارسه – إبراهيم شمس الدين – طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان – الأولى ٢٠٠٣م – ١٤٢٤هـ.
٢٩- شعر الحارث بن خالد المخزومي د / يحيى الجبوري – الطبعة الأولى – ١٣٩٢ هـ – ١٩٧٢ م – منشورات مكتبة الأندلس بغداد.
٣٠- شعر الطبيعة في الأدب المصري في القرن الرابع الهجري – عوض علي الغباري – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨ م.
٣١- طبائع النساء – للفقيه أحمد بن عبد ربه الأندلسي – تحقيق وتعليق – محمد إبراهيم سليم – مكتبة القرآن – طبعة ١٩٨٥ م .
٣٢- طوق الحمامة في الإلفة والإلاف – لابن حزم الأندلسي – ضبط نصه وحرر هوامشه د / الطاهر أحمد مكي – طبعة دار المعارف الثالثة ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.
٣٣- طيف الخيال – الشريف المرتضي – تحقيق حسن كامل الصيرفي – تقديم د/ حسن البنا عز الدين – سلسلة الذخائر ١٧٥ – طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٨م.

٣٤- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده – لابن رشيق القيرواني – طبعة دار الجيل –بيروت لبنان – الخامسة ١٤٠١ هـ – ١٩٨١م.
٣٥- الغزل العذري في العصر الأموي د / حسن عبد القادر مصطفى – الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م – مطبعة السعادة.
٣٦- الغزل في العصر الجاهلي . د/ أحمد الحوفي – طبعة دار القلم – بيروت لبنان.
٣٧- الفاخر – لأبي طالب المفضل بن سلمة بن عاصم – تحقيق عبد الحليم الطحاوي – محمد على النجار – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م.
٣٨- قيس ولبنى شعر ودراسة – جمع وتحقيق د/ حسين نصار – طبعة دار مصر للطباعة.
٣٩- كتاب الحماسة للبحتري – تحقيق وشرح محمد نبيل طريفي – طبعة دار صادر – بيروت – الأولى ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م .
٤٠- لسان العرب لابن منظور طبعة جديدة محققة ومشكولة شكلًا كاملًا ومذيلة بفهارس مفصلة – طبعة دار المعارف .
٤١- مجمع الأمثال – لأبي الفضل الميداني – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – المكتبة العصرية – صيدا بيروت ٢٠١١م – ١٤٣٢ هـ .
٤٢- المدارس العروضية في الشعر العربي- عبد الرؤوف بابكر السيد – الطبعة الأولى ١٣٩٤ هـ – ١٩٨٥ م – الجماهيرية الليبية طرابلس .
٤٣- مصارع العشاق – أبي محمد بن جعفر البغدادي – تحقيق محمد حسن محمد – أحمد رشدي شحاته – منشورات محمد على بيضون – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – الأولى ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م.

٤٤- معاني الحروف – للإمام الزجاجي – حققه وقدم له – د / على توفيق الحمد – جامعة اليرموك – مؤسسة الرسالة بيروت – الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦م.
٤٥- معجم البلدان – ياقوت الحموي – تحقيق فريد عبد العزيز الجندي – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – الأولى ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.
٤٦- معجم تراجم الشعراء الكبير – تأليف وإعداد / يحيى مراد – طبعة دار الحديث بالقاهرة ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦م.
٤٧- معجم الشعراء – للمرزباني – تحقيق عبد الستار أحمد فراج – تقديم د / محمود علي مكي – طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة .
٤٨- معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢ م – كامل سليمان الجبوري – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت لبنان الأولى ٢٠٠٣ م – ١٤٢٤هـ.
٤٩- المعجم المفصل في شواهد العربية د / إميل بديع يعقوب – الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م – دار الكتب العلمية .
٥٠- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع للإمام السيوطي – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت لبنان الأولى ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م.
٥١- وقالوا في الحب – خالد اللحام – المؤسسة اللبنانية العربية للتوزيع والطباعة والنشر – الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

فهرس المحتويات

الفصل الأول ١٥٦٤
أضواء على حياة الحارث بن خالد المخزومي ١٥٦٤
تعريفه ونسبه: ١٥٦٤
وأما أُمُّه: ١٥٦٤
وللحارث أخوان: ١٥٦٤
زوجاته وأولاده: ١٥٦٥
منزلته: ١٥٦٥
شعره: ١٥٦٦
عشقه وغزله: ١٥٦٧
وفاته: ١٥٦٨
الفصل الثاني ١٥٧٠
وقوف الحارث بن خالد المخزومي على أطلال الأحبة ١٥٧٠
يقول في ذلك يوم بان أحبته: ١٥٧١
الفصل الثالث ١٥٩٦
غزليات الحارث بن خالد المخزومي في محبوباته ومعشوقاته ١٥٩٦
المعشوقة الأولى: عائشة بنت طلحة: يقول يخاطبها ويتودد إليها: ١٥٩٧
المعشوقة الثانية: (أثْل) ١٦١٠
المعشوقة الثالثة: ليلى بنت أبي مرة بن عروة بن مسعود الثقفي ١٦٢٠
المعشوقة الرابعة: أُمُّ بكر ١٦٢٦
المعشوقة الخامسة: أم عمران ١٦٣٢
الفصل الرابع ١٦٣٩
الحارث بن خالد المخزومي في التحسر على ذكريات الشباب ١٦٣٩
الفصل الخامس ١٦٤٣
الحارث بن خالد المخزومي في الأخوة والصداقة ١٦٤٣
الفصل السادس ١٦٤٩
الحارث بن خالد المخزومي في الهجاء والعتاب ١٦٤٩
الخاتمة وأهم نتائج البحث ١٦٥٣
فهرس المصادر والمراجع ١٦٥٦
فهرس المحتويات ١٦٦١